السيرة الذاتية فى أدب صلاح نيازى

د.نبيل أحمد عبد العزيز رفاعى

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات بسوهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين سيدنا محمد ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين. وبعد

فإن الدارس أو الباحث فى مجال فن السيرة الذاتية فى الأدب العربى، لن يجد الطريق أمامه ميسراً، بل يجده مليئاً بالأشواك، وذلك يرجع من وجهة نظرى، ومن خلال القراءة حول الموضوع لقضيتين هامتين، القضية الأولى تنقسم إلى أمرين هما:-

الأول: عدم تمكن الكتّاب من تحديد مفهوم السيرة الذاتية؛ نظراً للاختلافات الكبيرة بينهم حول تحديد هذا المفهوم.

الثانى: أن الكتّاب والأدباء لم يهتموا بفن السيرة؛ لأنهم صرفوا أنظارهم تجاه الفنون الأدبية المشهورة، مثل (القصة – الشعر – المسرحية – الرواية،... الخ)، بل عجزوا عن تحديد الملامح التى تميّز فن السيرة عن الأشكال القريبة منه مثل: -(المذكرات – الاعترافات – اليوميات – رواية السيرة الذاتية – الشهادات – قصيدة السيرة الذاتية.. الخ).

ظهر لى ما ذكرت من خلال قرائتى لبعض الكتب المهتمة بهذا الأمر مثل: (فن الشعر للدكتور إحسان عباس، الترجمة الشخصية للدكتور شوقى ضيف)، وغيرهما كثير، وكان لكتاب الدكتور "إبراهيم يحيى عبدالدايم" الأثر الأكبر فى تكوين معرفتى لهذا الفن، حيث أشار فيه إلى كثير من الدراسات التى كُتبت حول هذا الفن، خرج منها إلى أن الكثير من الدراسات التى تناولت السيرة الذاتية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن نعتبرها سيرة ذاتية فنية؛ لأنها تفتقر إلى المفهوم الفنى للسيرة الذاتية(*)، وهذا ما وضح لى بالفعل حيث وجدت أن هذه الكتب لم

(*) راجع فى ذلك كتاب "الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث - د/إبراهيم يحيى عبدالدايم صـ هـ.

تهتم بالناحية الفنية، بل إنها "تتسم بالإيجاز والعرض السريع والأحكام العامة، وينهج كثير منها نهجاً تاريخياً فى تناول قلة من السيرة الذاتية"(١).

القضية الثانية: الحديث عن أسبقية الغرب للعرب فى هذا المجال، إلا أن الحقيقة تقول غير ذلك، حيث اهتم الغربيون بالناحية التاريخية على حساب الناحية الفنية ساعة تناولهم لهذا الفن، فلو نظرنا إلى "البحث المختصر الذى كتبه المستشرق الألمانى "فرانز روزنتال"... والذى قام فيه بدراسة أنواع من الترجمات الذاتية فى التراث العربى نهج فيها نهجاً تاريخياً بحتاً... ومن بعده سار المستشرق الألمانى "كارل بروكلمان" فى مقاله الذى كتبه بالعربية"(٢).

إن ما تؤكده أغلب الدراسات العربية التى اطلعت عليها أن هذا الفن لم ينل الاهتمام الكبير عند الغربيين؛ نظرا لاهتمامهم بالفنون الأكثر شهرة من رواية وقصة ومسرحية وغيرها، فالغرب لم يكن أحسن حالا من العرب فى تناولهم لهذا الفن – فن السيرة الذاتية – بل أرى اشتراكهما فى عدم معرفة فن السيرة معرفة فنية، أكدّ ذلك الدراسات التى تمت فى القرنين التاسع عشر، والعشرين حيث تحققت فيها الفنية التى لم نجدها فى الدراسات السابقة.

لأجل ذلك كان اهتمامى بهذا الموضوع، واختياره لأن يكون موضوع بحثى.

وقد وقع اختيارى على كتاب "غصن مطعم بشجرة غريبة" للدكتور "صلاح نيازى" الكاتب العراقى المشهور، والذى يُعدّ من جيل الرواد العظام فى الوطن العربى عامة، وفى العراق خاصة؛ لأنه حمل على كتفيه عبء تحقيق الحرية والكرامة لشعب بلاده، فهو من أبرز الرموز الثقافية العراقية التى لها بصمة مؤثرة فى الثقافة العراقية، فكان هذا الكتاب الذى تناول فيه الأوضاع السيئة التى تسود بلاده فى فترات زمنية متعاقبة، خاصة فترة الستينيات من خلال سيرته الذاتية، وهذا الكتاب يختلف عن الكثير من كتب السيرة الذاتية، لأنك لا تجد فى عنوانه ما يدل على أنه سيرة ذاتية، بل نجد الكاتب يستخدم فيه لغة المقارنة بين الغرب والشرق بعدما أجبر على ترك وطنه نظراً للأحوال السيئة التى جرت فيه، فذهب

(١) إبراهيم يحيى عبدالدايم، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث ـ دار إحياء التراث صـ ج ٠

(٢) المرجع السابق، صـ د بتصرف.

إلى لندن ليقيم فيها، وليكتب ما يشاء حول ما يتمنى تحققه لبلده، فكان لزاماً عليه استخدام لغة المقارنات كما ذكرنا.

أما خطة هذا البحث فهى كالتالى:

يتكون البحث من مقدمة، وتوطئة، وأربعة مباحث، وخاتمة، ثم المصادر والمراجع، وتفصيل ذلك كما يلى:

التوطئة: وفيها أتحدث عن: التعريف بالكاتب – السيرة لغة واصطلاحا –مفهوم السيرة الذاتية – الفرق بين السيرة الذاتية والغيرية.

المبحث الأول وعنوانه: ملامح السيرة الذاتية والأشكال القريبة منها. التاريخ والسيرة الذاتية –السيرة الذاتية والمذكرات – اليوميات والسيرة الذاتية –السيرة الذاتية والرواية –ملامح السيرة الذاتية عامة – دوافع كتابة السيرة الذاتية.

المبحث الثانى وعنوانه: نشأة السيرة الذاتية فى الأدبين العربى والغربى:

أ و لا: عند العرب.

ثا نيا: عند الغرب.

المبحث الثالث: عتبات السيرة الذاتية وأحداثها:

العنوان –الميثاق –الأحداث.

المبحث الرابع: عناصر البناء الفنى للسيرة الذاتية:

السرد –الأشخاص– الزمن (الطبيعى – النفسى) –المكان –الصراع –الحوار –اللغة –الضمير.

ثم انتهت الدراسة بخاتمة تضمنت أبرز النتائج والتوصيات ثم المصادر والمراجع، ثم فهرساً للموضوعات.

التوطئة

التعريف بالكاتب: (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م):

الدكتور صلاح نيازى. ولد فى الناصرية – العراق – من عائلة دينية، مات أبوه وعمره سنتان، وافتقرت أسرته بعد غنى، وعاش فى يتم وفقر، وتعرض لشظف العيش، هجر مدينته، وعاش فى شبابه ببغداد... ثم هاجر إلى لندن وعمل فى الإذاعة البريطانية مترجماً ومعلقاً، وحصل على الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٧٣م... متزوج من الروائية العراقية "سميرة المانع" شقيقة الناقد "نجيب المانع". حاصل على ليسانس فى اللغة العربية وآدابها من جامعة بغداد، وعلى الدكتوراه من (سواس) بجامعة لندن.

يقيم فى لندن منذ عام ١٩٦٣م ويرأس منذ ١٩٨٥م تحرير مجلة الاغتراب الأدبى وهى مجلة لندنية تعنى بأدب المغتربين. اشترك فى عدد من المؤتمرات الأدبية العربية والعالمية منها مؤتمر مسرح خيال الظل بلندن والبينالى الشعرى العالمى فى بلجيكا. من دواوينه الشعرية: "كابوس فى فضة الشمس" ط١٩٦٢م، و"الهجرة إلى الداخل" ط١٩٧٧م، و"نحن" ط١٩٧٩م، و"الصهيل المعلب" ط١٩٨٨م. وله عدد من المؤلفات والمترجمات المخطوطة مثل: "من تقنيات التأليف والترجمة" و"على بن مقرب العيونى" و"مسرحية ماكبث لشكسبير".. كتبت عنه عدة دراسات فى الصحف والدوريات، قال عنه الناقد طراد الكبيسى: (هو من أكثر الشعراء تناقضا فى لغته، فهو يجمع بين اللغة القديمة _ والتى ربما لا نجدها إلا فى القواميس، وبين اللهجة العامية المبتذلة أحياناً.. وهو شاعر صور أكثر من أى شئ آخر).ترجمت بعض قصائده إلى الإنجليزية"[١].

(١) ساخاو ـ عبدالفتاح الصعيدى ـ معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، جـ٣، ط١، ٢٠٠٣م، ١٤٢٤هـ، صـ٢٢٠، ٢٢١ .

لم يستطع "نيازى" التخلى عن شاعريته عند كتابة سيرته الذاتية، لذا وجدناه قد ضمّن بعض أبيات الشعر فى سيرته، وذلك يعود من وجهة نظرى إلى أن " لكل قصيدة أو مقطع شعرى تاريخ سرى من الألم، وشفرة دامية من الفجيعة"(١).

يعترف نيازى على علاقته القوية بالشعر، فيقول: "كل ما فعلته لا يخرج عن مجال علاقتى بالشعر"(٢). يتضح ذلك عند حديثه عن سيد البيت الذى يسكن فيه، عندما طلب زيارته، يقول: "شعرت براحة عجيبة... اختلطت مشاهد حياتى مرة واحدة، ولم يعد لأى شئ جدوى، تذكرت قصيدتى "كابوس":

الأرض لا تـــــــدور أو تـــــــدور ∴ الشـــرق غـــرب والشـــمال فـــى الجنـــوب

ورددت عدة مرات:

يـا بـؤس إنسـان يمـوت لا يقـدر أن يمـوت ∴ أو أن يحسـن اللـذه السـوداء فـى الوفـاة"(٣)

لقد رأى "نيازى" أن اقتران الشعر بالنثر أمر طبعى حيث لا يوجد ما يمنع الاتصال، فالمزج بين الواقع والخيال المتوقع حدوثه، فيه ما يؤكد على شدة العلاقة بين الشعر والنثر.

إلى جانب أن الكاتب أو المؤلف له الحق الكامل أن يحلّق فى بستان الأدب بمختلف أجناسه وألوانه، يقطف منه ما يشاء فى سبيل تحقيق ما يصبو إليه.

يؤكد ذلك ما حدث من تطور وصل لدرجة أن الأمر "لم يعد يتعلق بتوظيف أو إدراج أبيات شعرية داخل نص السيرة الذاتية. لقد باتت "القصيدة السيرذاتية"

(١) وديع العبيدى، صلاح نيازى، "صورة فى الثمانين" ديوان العرب منبر حر للثقافة والفكر والأدب، الخميس ١٩ مارس ٢٠١٥م.
(٢) وديع العبيدى، السابق.
(٣) صلاح نيازى -غصن مطعم بشجرة غريبة- ص ٨١ .

تمثل جنساً أدبياً ينتمى إلى السيرة الذاتية، وهى بمثابة نصوص، شذرات واستدعاءات مقطعية، يميزها استعمال "أنا""[١]

حقاً لقد كان لنيازى نظرة استشرافية تجاه هذا الأمر، حيث آمن بالتواصل بين الأجناس الأدبية المختلفة. عود على بدء نقول:

"ترك صلاح نيازى العراق فى عام ١٩٦٣م على إثر الانقلاب الدموى الذى وقع ٨ شباط ضد الجمهورية الأولى واعتقل وأسيئ إليه كما أسيئ إلى الكثير من أبناء الشعب العراقى.. واجه حياة الغربة والاغتراب الداخلى حتى حين كان فى الوطن. والكتاب سيرة حياة ذاتية للكاتب فريدة من نوعها ومليئة بالأحداث والمفاجآت. الكتاب يختلف عن عشرات الكتب التى سجلها أصحابها باعتبارها سيراً ذاتية.. لقد ارتدت غالبية من كتب سيرته الذاتية أقنعة وكتبت ما تشاء... أما كاتبنا المميز فقد خلع كل الأقنعة التى كان فى مقدوره أن يرتديها.. وفضل الاستلقاء على سرير طبيب نفسانى هو ذاته، وترك لنفسه حرية الحديث المفتوح والصريح والشفاف عن نفسه والصادق مع نفسه وعن معاناته ليتخلص من علله النفسية وأوجاعه الجسدية التى تسبب بها المجتمع والنظم السياسية التى سادت العراق"[٢].

إن المطّلع على كتاب "صلاح نيازى" يجد أنه يتعامل مع فيلسوف وحكيم وجراح فى آن واحد.

"خرج صلاح نيازى من العراق وهو يعانى من علل نفسية وأوجاع وزواج جميل تم لتوه فى أوضاع مرة. كان يريد أن يموت كما يرغب هو وليس كما يريده الأشرار له، فالأشجار الشامخة تموت وهى واقفة ولا تحنى شموخها للعواصف الصفراء أو تموت بها"[٣].

(١) عبداللطيف الورارى، السيرة الذاتية والشعر، جريدة القدس العربية، يومية، ٢٣/٥/ ٢٠١٥م.
(٢) د/ كاظم حبيب، قراءة فى كتاب غصن مطعم فى شجرة غريبة (سيرة ذاتية) للدكتور صلاح نيازى، جريدة الحوار المفتوح، العدد ١٦٢٣ بتاريخ ٢٠١٣/٦/٢٢م.
(٣) د/ كاظم حبيب، دورية سابقة .

كتب فى ذلك يقول: "كانت أمنيتى الوحيدة لا الوصول إلى لندن، لا العيش فيها، ولكن الموت فى مكان آخر، الموت بإرادتى، أردت "أن أحس اللذة السوداء فى الوفاة"... أردت أن أختار نوع موتى، كما اختار السهروردى موته"(١).

إننا أمام كاتب عركته الحياة وأتعبته المحن والمصائب، ذاق ما ذاق من الحرمان، لكنه لا يكل ولا يمل فى نضاله للبقاء على الحياة.

يقول عن أسباب خروجه من العراق: "قتل أخى: (كتبت عنه قصيدة طويلة نشرت بكراس عام ١٩٦١م.. قتل عبدالكريم، دُفن فعُبد ثم نبشته الحكومة وألقت جثته فى النهر. دخل (القطار الأمريكى) إلى العراق. وتوحش البشر، كأنما لم يكونوا من صنع الله وخلقه. فنون منوعة من التعذيب وقص الألسن، والاغتصاب... يجبرونك على التغوط والتبول فى طاسة أمام رفاقك. ترمى الفضلات، ويمنعون عليك تنظيفها. يجوّعونك عمداً، يصبون أكلك فى تلك الطاسة، تأكل وأمرك إلى الله، ويغتصبون أمك، وأختك، وزوجتك أمامك، ثم يغتصبونك. الهروب بالجلد أقصى ما يمكن من طموح، واللعنة على مسقط رأسك. جاءنى المرحوم حسين مردان، وأخبرنى أن وزير الإعلام قال له "لا نمنع شاعرا من السفر، ولا نقتل شاعرا، دم لو رقا عبرة لنا" قطعت التذكرة من بغداد إلى لندن عن طريق القطار"(٢).

تلك هى أهم الأسباب التى أدت بالكاتب إلى الهروب من بلده العراق.

(١) السيرة، صـ٥١ .
(٢) السيرة صـ٣٧، ٣٨ .

السيرة: لغة واصطلاحا:

جاء فى لسان العرب: لغة: "السَّيرُ: الذهاب؛ سار يسير سَيراً وتَّسياراً ومسيرة وسيرورة.. والتَّسيار: تَفعَالٌ من السير، وسايره أى جاراه فتسايرا. وبينهما مسيرة يوم. وسَيَّرهُ من بلده: أخرجه وأجلاه. وسَيَّرتُ الجُل عن ظهر الدابة: نزعته عنه. والسَّيرةُ: الضرب من السير، والسُّيَرةُ: الكثير السير. والسِّيرةُ: السنة، والطريقة. يقال: سار بهم سيرَةً حسنة، والسِّيرة: الهيئة، وفى التنزيل العزيز: سنعيدها سيرتها الأولي، وسير سيرةً: حدّث أحاديث الأوائل"(١).

وجاء فى القاموس المحيط: "السَّيرُ: الذهاب كالمسير والتسيار والمسيرة والسيرورة. والسَّيرة: الضرب من السير، والسيرة بالكسر: السنة والطريقة والهيئة.." (٢).

وفى ابن منظور أيضا "السيرة لغة: الطريقة، ويقال: سار بهم سيرة حسنة، وسير سيرة: حدث أحاديث الأوائل، وسار الكلام والمثل فى الناس: شاع، ويقال: هذا مثل سائر"(٣).

أما تعريف السيرة اصطلاحا هى: "فن ترجمة الحياة لشخص ما"، أو "تاريخ مدوِّن لحياة شخص"(٤).

أما التعريف الأدبى لفن السيرة هى: "نوع من الأدب يجمع بين التحرى التاريخى والإمتاع القصصى، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته"(٥).

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط٣، ١٩٩٤م، مادة سير.
(٢) الفيروزآبادى، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، مادة سير.
(٣) لسان العرب لأبى الفضل جمال الدين بن منظور، دار صادر ، بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٦م، مادة : سير ٦/ ٥٦ .
(٤) معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، مجدى وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص٢٠٥ .
(٥) أنيس المقدسى، الفنون الأدبية وألامها فى النهضة العربية الحديثة، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ص٥٤٧ .

مفهوم السيرة:

لا يزال الأمر صعبا تجاه تحديد مفهوم معين للسيرة الذاتية، ولم يكن ذلك بسبب صعوبة التأويل فقط، وإنما لكونه جنساً زئبقياً غير مستقر، كما أنه فن به مرونة تمكنه من التراسل مع بقية الفنون الأدبية القولية القريبة منه، من مثل: (رواية السيرة الذاتية، والمذكرات، والتوقيعات، واليوميات، والرسائل، والشهادات، والمحاورات.

لقد حاول "فيليب لوجون" أن يضع حداً لتعريف السيرة الذاتية، لكنه فشل فى ذلك بسبب الإشكالية التى ذكرناها سابقا، يقول: "كنت قد حاولت القيام بذلك، فى كتابى "السيرة الذاتية فى فرنسا" لأتمكن من تحديد متن منسجم، غير أن الحد الذى وضعته كان يترك عدداً من القضايا النظرية معلقة، وقد أحسست بالحاجة إلى تهذيبه وضبطه بمحاولة العثور على مقاييس أكثر دقة، وبذلك لم يكن لى بد من أن أصادف فى طريقى المناقشات الكلاسيكية التى يثيرها نوع السيرة الذاتية دائماً.. ثم بسبب اللبس فى إشكاليات مستعارة من مجالات لا رابط بينها"[(١)].

من هنا كانت صعوبة تحديد مفهوم هذا الفن فى البداية، ولكن ليس معنى ذلك أن الأدباء والكتاب لم يستطيعوا تحديد هذا المفهوم لاحقا، إنما استطاعوا تحقيق ذلك كما سنرى.

قبل الوصول إلى تحديد هذا المفهوم نرى أنه من الضرورى توضيح الفروق بين السيرة الغيرية والسيرة الذاتية، التى يحدث التطابق فيها بين الشخصية التى تدور حولها السيرة، والمؤلف، والسارد للدرجة التى نستطيع أن نذيل النص بعبارة "أنا الموقع أدناه"[(٢)]، وهذا ما لا يمكن تحققه فى السيرة الغيرية، لذا "يقعد انعدام

(١) فيليب لوجون، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبى، ترجمة عمر حلى، المركز الثقافى العربى، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، صـ٢١ .
(٢) لوجون فيليب، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبى، ترجمة عمر حلى، المركز الثقافى العربى، بيروت ، ١٩٩٤م، صـ٢٤ .

التطـابق بـين الـراوى والشخصـية الرئيسـية بالسـيرة الغيريـة عـن أن تكـون سـيرة ذاتية"[١]، يتم تأكيد ذلك من خلال مفهوم السيرة الغيرية، التى هى "بحث يعرض فيـه الكاتـب حيـاة أحـد المشـاهير، فيسـرد فـى صـفحاته حيـاة صـاحب السـيرة أو الترجمة، ويفصّل المنجزات التى حققها، وأدت إلى ذيوع شهرته، وأهّلته لأن يكون موضوع دراسة"[٢].

كما يعرفها آخر بقوله: " أن يكتب الإنسان عن الأشخاص البارزين لجلاء شخصـياتهم والكشـف عـن جوانـب العظمـة وجوانـب الانحطـاط فـى هـذه الشخصيات"[٣].

ومن الفروق المؤثرة بين السيرتين، الاختلاف فى رسم الشخصية، لأن "كاتب السيرة الذاتية يقدم الشخصية من الداخل إلى الخارج، بمعنى أنه يقدم الانفعالات ثم أثرها الخارجى، أو بروزها فى شكل أحداث، أما كاتب السيرة الغيرية فليس أمامه إلا أحداث فى أكثر الأحيان منها يتعمق إلى الداخل، أو يقدم الشخصية من الخارج إلى الداخل"[٤].

لا يُخشى على السيرة الذاتية التداخل مع السيرة الغيرية فقط، وإنما الخوف من الخلط بينها وبين الفنون القريبة منها مثل: (التاريخ – المذكرات – اليوميات – الرواية.. الخ)، لذا أصبح من الضرورى تحديد مفهوم هذه السيرة، فهى كما ذكرها

(١) شكرى المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتى، السيرة الذاتية فى كتاب الأيام لطه حسين، ط١، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢م، صـ١٦ .
(٢) عبداللطيف الحديدى، فن السيرة بين الذاتية والغيرية فى ضوء النقد الحديث، دار السعادة للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، صـ٦٧ .
(٣) هـانى العمـد، دراسـات فـى كتـب التـراجم والسـير، المؤسسـة الصـحفية الأردنيـة، ط١، ١٩٨١م، صـ٨ ـ ٩ .
(٤) ماهر حسن فهمى، السيرة تاريخ وفن، ط٢، دار القلم، الكويت، سنة ١٩٨٣م، صـ٢٥٣ .

"فيليب لوجون": "حكى استعادى نثرى يقوم به شخص واقعى عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة"(١).

أما أبسط التعريفات، فكان تعريف "ستاروبنسكى"، "هى سيرة شخص يرويها بنفسه"(٢).

وهناك باحثون تعرضوا لتحديد مفهوم هذا الفن منهم "د/محمد عبدالغنى حسن"، يقول: "هى أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعا لأهميته... فإذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثره انطباقا على حياته، لأنها ليست مجال تخمين أو افتراض، ولكنها مجال تحقيق وتثبت"(٣).

ويراها الدكتور "عبدالعزيز شرف"، "تعنى حرفيا ترجمة حياة إنسان كما يراها هو"(٤).

وأخذت المفاهيم تتقدم حتى وصلت لدرجة وصف هذا الفن، بأنه الأقرب إلى الإنسان، يقول "على شلق": "إن السيرة الذاتية نوع من الأدب الحميم، الذى هو أشد لصوقاً بالإنسان من أية تجربة أخرى يعانيها"(٥).

(١) فيليب لوجون، صـ٢٢ ، مرجع سابق.
(٢) شكرى المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتى صـ٩، مرجع سابق.
(٣) محمد عبدالغنى حسن، التراجم والسير، دار المعارف، ط٣، صـ٢٣ .
(٤) د/ عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط١، صـ٢٧ .
(٥) على شلق، النثر العربى فى نماذجه وتطوره لعصرى النهضة والحديث، دار القلم، بيروت، سنة ١٩٧٤م، ط٢، صـ٣٢٤ .

أما "يمنى العيد" فترى أنها "عمل أدبى قد يكون رواية، أو قصيدة، أو مقالة فلسفية، يعرض فيها المؤلف أفكاره، ويصور إحساساته بشكل ضمنى أو صريح"(١).

إن هذا الرأى من الآراء التى تؤكد إشكالية المحايثة بين فن السيرة الذاتية والفنون الأخرى القريبة منها.

فها هى الكاتبة وقد خلطت بين الفنون المختلفة، فجعلت بذلك الرواية سيرة ذاتية، وكذلك القصيدة، والمقالة الفلسفية، فكان يجب عليها أن تراعى أن لكل فن صفته الأدبية التى تميزه عن غيره، فالعمل الأدبى لا يكسب "صفة السيرة إلا إذا كان تفسيراً للحياة الشخصية فى جوهرها التاريخى... فهى ليست مجرد أخبار تاريخية ولا هى مجرد تحليلات نفسية أو اجتماعية، بل هى كل ذلك مسبوكا فى قالب فنى ذى طلاوة ورواء"(٢).

هذا فى اعتقادى ما دعا "ليون إدل" أن يصف السيرة الذاتية بأدق الفنون الكتابية، يقول: "إنه أدق وأرق فنون الكتابة طراً"(٣).

خلاصة القول عندى، أن السيرة كشكل أدبى وجد منذ قديم الزمان، إلا أنه بدأ بداية ضعيفة مثل أى فن ناشئ، أما السيرة كفن أدبى مكتمل يخضع للقواعد النقدية فلم يتحقق وجوده إلا فى القرون الحديثة، وبالتحديد فى القرنين التاسع

(١) يمنى العيد، السيرة الذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة، دراسة فى ثلاثية حنا مينا، مجلة فصول، مجلد (١٥)، عدد (٤) ١٩٩٧م، صـ١٣ .
(٢) أنيس المقدسى، الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، أغسطس سنة ١٩٨٤م، صـ٥٥١ .
(٣) ليون إدل، فن السيرة الأدبية، ترجمة صدقى خطاب، دار العودة، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٨م، صـ١٧ .

عشر والعشرين، فهذا الفن "غرض أدبى عريق فى حضارتنا العربية الإسلامية، ولئن لم يتبلور متصوره الذهنى بما يتيح له الانفراد بمصطلح نقدى مخصوص"(١).

علنا بذلك نكون قد وقفنا فى إعطاء فكرة عن تحديد مفهوم السيرة الذاتية، والفرق بينها وبين الغيرية، فالسيرة الذاتية ذاتية، أما الغيرية فهى موضوعية.

بعد كل هذا أرى أننا مازلنا فى حاجة لدراسة هذا النوع الأدبى الهام، للوقوف على تعريف جامع مانع، لا يحتاج إلى تأويل هنا أو هناك.

(١) عبدالسلام المسدى، النقد والحداثة، مع دليل بيلوغرافى، بيروت، دار الطليعة سنة ١٩٨٣م، صـ١١٤ .

المبحث الأول

ملامح السيرة الذاتية والأشكال القريبة منها

ذكرنا فيما سبق أن السيرة الذاتية فن مرن، هذه المرونة تجعله قريب الصلة بالعديد من الفنون الأدبية الأخرى مثل: التاريخ، المذكرات، اليوميات، الاعترافات، والقصة والرواية.

أولا: التاريخ والسيرة الذاتية:

قلنا سابقا أن السيرة الذاتية تتداخل مع كثير من الأشكال الأدبية ومنها التاريخ وعليه "فإن الخلاف بين العلماء فى تمثل الاحساس بالتاريخ عند أمة وأخرى، لن يطمس حقيقة هامة، وهى أن ذلك الحس التاريخى هو الأب المنجب للسير يوم كانت السير جزءاً من التاريخ، ويوم كانت حياة الفرد تمثل جانبا هاما من تصور الناس"(١).

من هنا جاز القول بأن السيرة الذاتية "فى أحضان التاريخ نشأت وترعرعت واتخذت سمتاً واضحاً وتأثرت بمفهومات الناس عنه على مر العصور"(٢).

ولذلك نجد كثيراً من الباحثين يعرفون السيرة بأنها تاريخ للحياة، يقول أحدهم: "السيرة تاريخ الحياة، ترجمة الحياة"(٣).

(١)د/ إحسان عباس ،فن السيرة ، دار صادر بيروت، دار الشروق عمان، ط١، ١٩٩٦م، صـ١٠ .

(٢)د/ إحسان عباس ،فن السيرة ، دار صادر بيروت ، دار الشروق عمان، ط١ سنة ١٩٩٦م ، ص١٠، ١١ بتصرف يسير .

(٣) كامل المهندس، ومجدى وهبة، معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ص١١٥ .

أمـا الـدكتورة/ سـهير القلمـاوي فقـد توصـلت إلـى أن "فـن كتابـة السـيرة فـن أدبـى... ولكنـه كالمسـرحية التاريخيـة مـرتبط بأسـاس تـاريخى وبـبعض معلومـات شائعة عن العصر والزمان والمكان لا يمكن للمسرحى أن يتخلص منها"(١).

أما تهانى عبدالفتاح فتقول: "لقد نشأت السيرة بنوعيها، الذاتية، والغيرية فى حضن التاريخ، لذلك ففيها بعض ملامحه، بل إنها فى بعض الأحيان تقترب منه إلى درجة تجعل بعض الباحثين يعدونها لونا من ألوان التاريخ"(٢).

فالنـاظر بتـأنٍ إلـى العلاقـة بـين السـيرة والتـاريخ، يجـد أن هنـاك أوجـه اتفـاق يسيرة، مثل تحري الصدق فى كل، إلى جانب حاجة كل منهما إلى الاعتماد على الوثائق والمدونات، وكلاهما يحتوي على أحداث وأشخاص إلا أن السيرة تركز على الأشخاص، أما التاريخ فيهتم بالأحداث "وكلما كانت السيرة تعرض للفرد فى نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها فإن السيرة _ فى هذا الوضع – تحقق غاية تاريخية، وكلما كانت السيرة تجتزئ بالفرد، وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى، وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلته بالتاريخ تكون واهية ضعيفة"(٣).

ومن الملاحظ أن هناك من يقول بصلة السيرة بالتاريخ، وهناك من يفصل بينهما تماما، فمن يرى التقارب يعتمد على أن السيرة "كانت تسجيلا للأعمال والأحداث والحروب المتصلة بالملوك عن الصينيين والمصريين والأشوريين"(٤).

(١) سهير القلماوي، فن كتابة السّير تاريخ هو أم أدب، مجلة العربى، عدد (١٧)، نيسان ١٩٦٠م، ص٥٤ .
(٢) تهانى عبدالفتاح شاكر: السيرة الذاتية فى الأدب العربى فدوى طوقان، وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢م، ط١ ،ص١٦ .
(٣)د/ إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر بيروت، دار الشروق عمان، ط١، ١٩٩٦م، ص١٢ .
(٤)د/ إحسان عباس، فن السيرة، ص١١، دار صادر بيروت.

أما من يقول بالاختلاف بين السيرة والتاريخ فيستند إلى "أن السيرة الذاتية، كأدب، تختلف عن المفهوم التاريخى من حيث إنها تشهد على أن للمستقبل مركز الصدارة بالقياس إلى الماضى"(١).

وقد أنكر الأستاذ "كولونجودو" هذا التقارب، لأنه يرى أن السيرة "تفقد القاعدة الصحيحة التى يقوم التاريخ عليها، فحدود السيرة هى الأحداث البيولوجية الواقعة بين ولادة شخص وموته، من طفولة ونضج وأمراض وغيرها"(٢).

وإلى مثل ذلك يذهب "توينبي" فهو "يخرج من دائرة التاريخ ما يتصل بالسيرة الذاتية كاعترافات القديس أوغسطين وروسو"(٣).

وهناك من يقول إن السيرة الذاتية ليست وثيقة تاريخية، لذا "كان جيته صادقا حقا... حين أطلق على ترجمته لنفسه اسم الشعر والحقيقة، فكل ترجمة ذاتية، مهما يكن من دقة صاحبها... هى لابد مزيج اشتراك فى تكوينه عاملان متعارضان هما: الحقيقة والخيال"(٤).

من خلال ما سبق وضح لنا أن السيرة الذاتية تشبه التاريخ فى وجوب تحرى الصدق، وفى وجود أشخاص حقيقيين، وتختلف عنه فى أنها تعتمد على الذاكرة، أما التاريخ فيعتمد على الوثائق، إلا أننا نرى ثمة ارتباط بينهما لأن المحور الأساسى الذى تدور حوله السيرة هو الشخص، فلو نزعنا هذا الشخص من المجتمع فقدت السيرة عنصرها التاريخى، وبذلك تكون أقرب إلى الحكايات

(١)د/ عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، ١٩٩٢م، ص٢٦ .
(٢)د/ إحسان عباس، فن السيرة ص١١ .
(٣)د/ إحسان عباس، فن السيرة ص١١، دار صادر بيروت.
(٤) عبدالرحمن بدوى، الموت والعبقرية ، وكالة المطبوعات، دار القلم، بيروت، ط١، ص٩٩.

والأخبار التى لا ترجى من ورائها فائدة. ومجمل القول أن التاريخ توثيق للحقائق، أما السيرة فهى إبداع يعتمد على الحقيقة إلى جانب قسط من الخيال.

السيرة الذاتية والمذكرات:

تعريف المذكرات هى: "سرد كتابى لأحداث جرت خلال حياة المؤلف، وكان له فيها دور، وتختلف عن السيرة الذاتية بأنها تخص العصر وشؤونه بعناية كبرى، فتشير إلى جميع الأحداث التاريخية التى اشترك فيها المؤلف، أو شهدها، أو سمع عنها من معاصريه، وأثرت فى مجرى حياته"(١).

من خلال المذكرات يمكننا معرفة قدر كبير عن المجتمع الذى يدور حوله موضوعها، أكثر مما نعرف عن الكاتب نفسه، ذلك لأن المذكرات "تولى اهتماما للأحداث حول الكاتب وخارجه أكثر مما تولى للكاتب نفسه... ومن المذكرات نعرف قدرا كبيرا عن المجتمع الذى يدور حوله موضوع المذكرات، وقليلا عن الكاتب نفسه"(٢). كما أن كاتب المذكرات يلتزم عادة "بالتسجيل والتوضيح لما يدور حولها أما ما يدور داخلها فيظل فى الظل"(٣).

فالمذكرات تهتم بالمجتمع، أما السيرة الذاتية فإنها تهتم بسيرة الإنسان نفسه، والسيرة تعتمد على الذاكرة، وقد تكون المذكرات من الأدوات التى يستعين بها كاتب السيرة، أما المذكرات فتعتمد على الوقائع التاريخية. ومع ذلك فإن صلة قوية تجمع بين المذكرات والسيرة الذاتية لدرجة صعوبة الفصل بينهما، فالمذكرات هى

(١) جبور عبدالنور، المعجم الأدبى، دار العلم للملايين، لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص٢٤٦ .
(٢) د/ عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، ص٤٤ .
(٣) نبيل راغب، فنون الأدب العالمى ، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ١٩٩٦م، ط١، ص٤٧.

"الشكل الوحيد الذى له صلة، والذى من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، فصله منطقيا من السيرة الذاتية هو المذكرات"(١).

اليوميات والسيرة الذاتية:

اليوميات هى عبارة عن "سجل للتجربة اليومية، والحفاظ على عملية حياة المرء بالذات، دون نظر إلى التطور الذى يحاكى نموذجاً معيناً، أو التواصل القصصى، أو الحركة الدرامية نحو ذروة ما"(٢).

ومن الفروق الجوهرية بين السيرة الذاتية والمذكرات واليوميات أن "نص السيرة الذاتية يحكى ماضيا بسرد متواصل فيما تكون المذكرات واليوميات عبارة عن مدونات لها قوة الوثيقة التى لا يمكن تعديل زمنها"(٣).

فاليوميات لا تلتزم بالشروط الفنية للسيرة، وإن كانت تشبهها فى أنها متعلقة بالأشخاص وسرد حياتهم.

السيرة الذاتية والرواية:

هناك فرق كبير بين السيرة الذاتية والرواية المسرحية، لأن كاتب الرواية يعتمد على التصور والخلق، أما كاتب السيرة الذاتية فيميل إلى الصدق والحقيقة "إن كاتب الترجمة لا يشبه الروائى أو المسرحى، اللذين يعتمدان اعتماداً كاملاً على الخلق والتصور فى موضوعهما سواء كان أسطورياً أم خيالياً، حتى إذا كان منتزعاً من التاريخ أو الواقع الحاضر، فإنهما يعتمدان فى تصويره على التصور والخلق"(٤).

(١)د/ عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية ،ص٣٨ .
(٢)د/ عبدالعزيز شرف ،أدب السيرة الذاتية ، ص٣٨ .
(٣) حاتم الصكر، كتابة الذاتدار الشروق، عمان، الأردن، ١٩٩٤م، ط١، ص١٩٢،.
(٤)د/يحيى إبراهيم عبدالدايم، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث ،ص٢٧.

إلا أنه من الناحية الفنية، أكثر الأشكال قرباً من السيرة الذاتية هو الفن الروائى، ومن الأدباء من يشير إلى هذا التقارب، ويصفه بالمستحدث، يقول: "ومن ناحية أخرى هناك التقارب المستحدث بين منهج التراجم، والأسلوب الروائى. ففى التراجم الحديثة متعة القصص، وتشويق الرواية، وبراعة النسج، وإجادة السرد"(١).

من الأمور المسلم بها فى الرواية شرط تطابق المؤلف والسارد، كذلك اتسامها بالتسلسل المنطقى للأحداث لدرجة تجعلنا نصدق أن الأفعال أو الأحداث المذكورة قد وقعت بالفعل، وهذا الشكل أيضا من الشروط الفنية التى يجب أن تتوفر فى السيرة الذاتية، مما يجعلنا نوافق على حلقة وصل تتقارب فيها السيرة الذاتية من الرواية، إلا أننا بالنظرة المتأنية تطل علينا أوجه الاختلاف، عندما نشاهد أن الراوي لديه الحرية المطلقة فى التصور والخلق "فالروائى يستطيع أن يستخدم الخيال كما يشاء، ولكن خيال كاتب السيرة ممسوك الزمام لأن السيرة هى إعادة تقديم صورة لحياة إنسانية"(٢).

كذلك "عندما يريد الفنان أن يكتب روايته يجد نفسه حرا فى استخدام إمكانيات خياله كافة، أما إذا أراد أن يكتب سيرة.. يجد أن مادته قصيرة ومحدودة، ودور الخيال هو فى جمع هذه المادة وتشكيلها"(٣).

كما تختلف الرواية عن السيرة أيضا فى قيمة الزمان والمكان، فإن "للزمان والمكان فى السيرة الذاتية قيمة وثائقية"(٤).

(١) على أدهم، على هامش الأدب والنقد دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ط١،ص٣٨.
(٢) ماهر حسن فهمى ، فن السيرة، مجلة الأقلام، العدد الثالث، السنة الأولى، ١٩٦٤م، ص٣٠ .
(٣) ليون إدل، فن السيرة الأدبية، ترجمة صدقى خطاب، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م ، ط١،ص٢٣.
(٤) أبوالمعاطى أبوالنجا، البئر الأولى، فصول من سيرة ذاتية، مجلة العربى، عدد (٣٥٢)، الكويت، مارس ١٩٨٨م، ص٣٧ .

كذلك تختلف السيرة عن الرواية فى المنظور الاسترجاعى للقص، إذ إن "التجارب فى السيرة الذاتية ملك للماضى وإن كانت تشير إلى المستقبل، والتجارب فى القصة ملك للحاضر وإن عالجت الماضى أو المستقبل"(١).

أما عنصر التشويق فمتفق بين الفنين، وهو ما يشد القارئ لقراءة الأحداث حتى نهايتها، وفى الغالب الأعم تكون نهاية الرواية مجهولة، أما السيرة فليست كذلك.

وعلى أية حال يمكن القول "إن السيرة الذاتية كجنس أدبى تنفرد عن بعض الأشكال المتقاربة، وبخاصة "المقال الشخصى" و"اليوميات" و"المذكرات اليومية" التى تستخدم فى السفر"(٢).

إذا السيرة الذاتية "ليست هى تلك التى يكتبها صاحبها على شكل "مذكرات" يعنى فيها بتصوير الأحداث التاريخية، أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذاتى، وليست هى التى تكتب على صورة "ذكريات" يعنى فيها صاحبها بتصوير البيئة والمجتمع والمشاهدات أكثر من عنايته بتصوير ذاته، وليست هى المكتوبة على شكل "يوميات" تبدو فيها الأحداث على نحو متقطع غير رتيب، وليست فى آخر الأمر "اعترافات" يخرج فيها صاحبها على نهج الاعتراف الصحيح، وليست هى الرواية الفنية التى تعتمد فى أحداثها ومواقفها على الحياة الخاصة لكاتبها. فكل هذه الأشكال فيها ملامح من الترجمة الذاتية، وليست هى، لأنها تفتقر إلى كثير من الأسس التى تعتمد عليها الترجمة الذاتية الفنية"(٣)

تلك هى أوجه الاتفاق والاختلاف بين الأشكال الأدبية القريبة من فن السيرة الذاتية، والتى تأكد لنا بعد الانتهاء من عرضها. أن فن السيرة الذاتية اتضحت

(١)د/ ماهر حسن فهمى، السيرة تاريخ وفن، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ط١ ١٩٧٠م، ص٢٤٨ .
(٢)د/ عبدالعزيز شرف،أدب السيرة الذاتية، ص٣٧ .
(٣) يحي إبراهيم عبد الدايم ،الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، ص٣ .

معالمه، وأصبحت له شخصيته الخاصة به، وإن كان ذلك لم يتكون إلا حديثا، فى الغالب الأعم فى القرن التاسع عشر، اتضح أكثر فى القرن العشرين.

ملامح السيرة الذاتية عامة:

السيرة الذاتية ليست وثيقة تاريخية، معنى هذا أنها ليست جامدة تنقل الحقيقة كاملة دون تدخل من الكاتب ولو كان بقدر، "فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبى مهما يخلص صاحبها فى نقلها على حالها"(١) لكن عدم تحقق الصدق لا يجب أن يكون قصداً من المؤلف؛ لأن فى القصد بعداً عن الحقيقة، وإنما يأتى نتيجة لاعتماد الكاتب فى سرد أحداثه على ذاكرته، والذاكرة من طبيعتها النسيان والخلط فمن "المؤكد أن الذاكرة لا تنسى فقط ولكنها قد تخدع أيضا، فتخلط الأسماء والأزمان والأماكن"(٢).

وبما أن بعض الباحثين والنقاد لهم وجهة نظر خاصة فى ضرورة استعمال الخيال فى كتابة السيرة الذاتية إلا أننا نحثهم على أن يكونوا صادقين بمعنى عدم اختلاق أحداث من محض خيالهم، يقول بليون أدل فى هذا الأمر: "ولكاتب السيرة أن يطلق لخياله العنان كما يحلو له "وكلما أمعن فى خياله كان ذلك أفضل، وذلك فى طريقة ربطه لمواده بعضها ببعض، ولكن عليه ألا يختلق مواده"(٣).

معنى هذا أن الكاتب للسيرة ديدنه نقل الحقائق كما هى دون تزييف، لكنه لا يأتى إلينا بكلام مهلهل، غير منظم، بل عليه أن يرتب أحداثه وينظمها وينسقها لذا رأينا من يقول: "وأخص ملامح الترجمة الذاتية التى تجعلها تنتهى إلى الفنون الأدبية، أن يكون لها بناء مرسوم واضح، يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتب

(١)إحسان عباس، فن السيرة، ، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص١٠٥.
(٢) ماهر حسن فهمى، السيرة تاريخ وفن ، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ط١، سنة ١٩٧٠م، ص٢٤٧.
(٣) ليون إدل، فن السيرة الأدبية، ترجمة صدقى خطاب ، دار العودة، بيروت، ط١ - ١٩٨٨م، ص١١٨.

الأحداث والمواقف والشخصيات، التى مرت به ويصوغها صياغة أدبية محكمة، بعد أن ينحى جانبا كثيرا من التفصيلات والدقائق التى استعادتها ذاكرته"(١).

ويعد تحقق الشروط الفنية التى وضعها النقاد للسيرة معلما من معالمها ولكن لنا أن نعلم أن السيرة الذاتية لم تقف عند معالم معينة، ولكن تعددت معالمها، واختلفت بين ناقد وآخر، فهناك "نماذج عديدة من التراجم الذاتية التى كتبها أعلام هذا الفن، غير أن ما بينها من الاختلاف، أكثر مما بينها من الاتفاق،... كاختلافهم فى معالمها الفنية"(٢).

فمن معالمها أو ملامحها أيضا "تصوير الصراع بضروبه المختلفة، تصويرا يطلعنا الكاتب من خلاله، على دخائل نفسه، وأثر أحداث الخارج فى حياته النفسية والشعورية والفكرية"(٣).

ومن الملامح المميزة للسيرة، والتى يختلف فيها الغرب عن العرب "الصراحة"، التى تحتاج إلى البوح والاعتراف، خاصة فيما يتعلق بالتابوهات الشائكة لدينا وهى: الجنس، والدين، والسياسة، فلا ضير عند كتّاب الغرب من استخدام الصراحة المكشوفة لأدق الأمور، إلا أن الكاتب العربى يتحاشى ذلك، فهناك من الأمور المعيبة التى ترفض ذكرها العادات والتقاليد والقيم، فيتوقف الكاتب عن ذكرها، ويسقطها من ذاكرته متعمدا من معالم السيرة "الصدق والصراحة والأمانة والتجرد، وأن يكون الكاتب فى تفسيره للمواقف والشخصيات ذا نظرة موضوعية، وأن يعالج مواد ترجمته الذاتية بمعزل عن العجب النفسى، وأن يبعد عن الميل إلى تصوير الوقائع والشخصيات تصويراً يبعده عن دائرة ذاته وما يعتمل داخلها"(٤).

تلك هى قناعاتى بأهم ملامح السيرة الذاتية.

(١) يحي ابراهيم عبد الدايم ،الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، ص٤ .
(٢)يحي ابراهيم عبد الدايم ، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، ص٢ .
(٣)يحي ابراهيم عبد الدايم ،الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، ص٩ .
(٤) راجع، يحي ابراهيم عبد الدايم ، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى، ص١١ بتصرف.

دوافع كتابة السيرة الذاتية:

إن التعرض للكتابة فى أى فن أدبى، لابد له من دوافع تدفعه إلى الأمام، وتوجه كاتبه نحو تحديد هدفه وغايته، "فكل ترجمة ذاتية وراءها حافز بعينه، وجه كاتبها فى كتابة سيرته بنفسه، وهذا الحافز هو الذى يشكّل مضمون كل ترجمة ذاتية، ويحدد هدفها وغايتها، وينقل إلينا عالم الكاتب نقلا صادقا"(١).

إن الدافع لكتابة سيرة ذاتية لم يكن واحدا فى كل الأحوال، بل تتعدد الدوافع على حسب حالة كل كاتب، لذا "تشترك دوافع عديدة مختلفة فى إيجاد السيرة الذاتية... فقد تكون السيرة من قبيل الاعترافات، والدافع الرئيسى وراءها هو تخفيف عبء الشعور بالذنب الذى يثقل كاهل صاحبها. ومن أشهر أمثلة هذا الشكل اعترافات القديس أوغسطين... وقد تكون السيرة من قبيل الدفاع الذى يحاول فيه الكاتب أن يُصرّح بمسار حياته ويبرره... وقد تكون عملا استكشافيا"(٢).

كما يمكن أن تكون تعرية للذات، أو رغبة فى نيل الشهرة أو فضح المسكوت عنه، أو كشف المستور، أو تحقيق الخلود.

أشارت الدكتورة "تهانى عبدالفتاح" إلى دوافع كتابة السيرة، قالت: "إن من أبسط الأمور التى تدفع الإنسان إلى كتابة سيرته الذاتية، رغبته الفطرية بالخلود، وهذه الرغبة تشتد عندما يشعر بالتفرد والتميز،... وكذلك تشتد رغبته بالخلود، إذا شعر بدنو أجله"(٣).

(١)يحي ابراهيم عبد الدايم ،الترجمة الذاتية فى الأدب العربى، ص٨٤ .
(٢)د/ عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية ص٤٥ .
(٣) تهانى عبدالفتاح شاكر، السيرة الذاتية فى الأدب العربى، فدوى طوقان، وجبرا إبراهيم جبرا، وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٢م، ص٢٦ .

وتذكر فى موضع آخر، أنه "قد يكتب سيرته الذاتية استجابة لدوافع خارجية، وهذه الدوافع تتمثل بالرغبة فى تعليم الآخرين وتوجيههم، وذلك عندما يرى كاتب السيرة أن حياته لا تصلح أن تكون عبرة للآخرين"(١).

من الملاحظ أن كتابة فن السيرة الذاتية، قد زاد فى العصر الحديث بشكل لافت للنظر، سواء كان ذلك فى الغرب، أو فى الشرق، ويرجع السبب فى ذلك لما تعرضت له الكرة الأرضية بأكملها من صراعات ظالمة، راغبة فى السيادة على العالم، "فالاتجاه إلى كتابة التراجم الذاتية يقوى ويشتد فى عصور الانتقال وأوقات الاضطراب والتقلقل، وذلك لأن بعض النفوس الحساسة، تشعر فى مثل تلك الأزمان بأنها فى حاجة إلى الملائمة بين نفسها وبين الظروف المحيطة"(٢).

وهناك من يرى أن القلق الفنى، واكتمال التجربة لدى الأديب هما السبب الرئيسى لإخراج هذه السيرة إلى حيّز الوجود "إن كل سيرة فإنما هى تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج، وأصبحت فى نفس صاحبها نوعا من القلق الفنى، فإنه لابد أن يكتبها"(٣).

علما بأن كاتب السيرة الذاتية لابد أن يكون ذا موهبة فنية عالية تجعله متمكنا من القيام بهذا العمل؛ ذلك لأن الدوافع مهما تعددت لا يمكن أن تقوم بذاتها بهذا الدور، مما يؤكد أن ليس بإمكان أى إنسان كتابة سيرته بنفسه وهناك دوافع كثيرة مليئة بها كتب السير والتراجم مما لا يسمح المجال بذكره الآن.

(١) المرجع السابق، صـ٢٦ .
(٢) على أدهم، لماذا يشقى الإنسان ، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر،ط١، ص٢٦٤.
(٣)د/ إحسان عباس، فن السيرة، ، دار صادر بيروت، دار الشروق عما، سنة ١٩٩٦م، ط١، ص٩٤، ٩٥.

المبحث الثانى

نشأة السيرة الذاتية فى الأدبين العربى والغربى

أولا: عند العرب:

هناك من يرى أن العرب لم يكن لديهم أية معرفة بالسيرة الذاتية، وآخرون يرون أن "للعرب فى هذا الميدان "نصيب وافر"[١]، ونرى باحث آخر يقول: "على العكس تماما مما هو شائع، فالعرب هم أهل السيرة الذاتية ورواد فى كتابتها... وكل كلام عن أن هذا الفن عند العرب، مستورد من الغرب، مجرد بدعة، وسوء قراءة"[٢]، أما من يرى عدم معرفة العرب لها فمنهم "جورج ماي" و"شكري المبخوث"، فشكرى المبخوت ينقل قول جورج ماي والذى يرى فيه أن السيرة الذاتية خاصة بالثقافة الغربية فيرى "أن كل من يكتب سيرة ذاتية من غير الغربيين إنما هو مقلد لهم، متأثر بثقافتهم"[٣].

ولا أدرى كيف يستقيم هذا القول، مع أن أغلب الدراسات تشير إلى أن العرب عرفوا السيرة الذاتية منذ القرن الثانى الهجرى، فالسيرة الذاتية "مرت بعدة مراحل من الترجمة الذاتية التى شهدناها فى القرن الثانى والثالث حتى الخامس للهجرة، إلى الاعترافات واليوميات والمذكرات فى القرن الخامس"[٤]. هذا من ناحية النشأة، أما القول المعقول، هو أن العرب تأثروا بالغرب فى الناحية الفنية، وهذا هو المقبول لدينا.

---

(١)د/ شرف ،أدب السيرة الذاتية مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ص.٢٨

(٢)سوسن الأبطح، أدب السيرة الذاتية، عربى أبًا عن جد، حوليات القدس، العدد السادس، شتاء ربيع ٢٠٠٨م، ص٩٠ .

(٣) شكرى المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتى ، السيرة الذاتية فى كتاب الأيام لطه حسين، دار الجنوب للنشر ، تونس ط١، ١٩٩٢م،ص١٩.

(٤)م.م خليل شكرى هياس ،السيرة الذاتية: تاريخ وثقافة ، جامعة الموصل، كلية المعلمين، مجلة أبحاث كلية المعلمين، مج١، ع١ ، ص١٣٦.

ثم يأتى إلينا شاهد من أهلها ليكفينا الكلام، وهو "لويس برزويه" يقول: "ربما كان كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، وكتاب التعريف لابن خلدون فى أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى أقرب أثرين فى القرون الوسطى إلى الفن المذكور.. ومن الجدير بالذكر أن هذا الفن لم ينتشر كثيرا فى الأدب الغربى إلا مؤخرا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين"(١). ثم يأتى كاتب آخر ليقر بذلك هو "كارل بروكلمان" يقول: "كان عرب الجاهلية يفخرون بذكر مآثر أسلافهم وأيامهم، وأنسابهم، وكان سمرهم يجرى على رواية أيامهم"(٢). فهذا الرأى يشير إلى أن العرب عرفوا السيرة منذ زمن بعيد، من خلال محاوراتهم فى أسمارهم اليومية. وهناك من الآراء من لا ينسبها –السيرة الذاتية – لا إلى الغرب، ولا إلى العرب، ولكن ينسبها إلى غير العرب من فرس وموال، على رأس هؤلاء "عبدالرحمن بدوي" يقول: "إن الجنس السامى غير قادر على كتابة السيرة الذاتية"(٣).

فمن العجب أن ينسب المعرفة من عدمها للجنس، أو النوع، وذلك لعدم تأثيرهما فى عملية الإبداع.

أما "محمد عبدالغنى حسن" فيرى أن العرب قد سبقوا الأوربيين فى معرفة هذا الفن، يقول: "ظلت أوربا عقيما فى كتابة التراجم منذ عصور الظلام التى خيمت عليها فى القرون الوسطى، على حين أخذ التاريخ الإسلامى يأخذ مكانه فى الوجود... وأخذت التراجم تظهر منذ القرن الثانى للهجرة. ثم أخذت على توالى

(١) لويس بوزويه، مظاهر السيرة الذاتية، حولية الجامعة اليسوعية، المجلد الأول، بيروت، ١٩٨١م، ص٢٥ .
(٢) كارل بروكلمان، ما صنف العرب من أحوالهم أنفسهم ، المنتقى من دراسات المستشرقين ، ترجمة صلاح الدين المنجد، ج١ ، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٥م، ص٣
(٣) عبدالرحمن بدوى، الموت والعبقرية ، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، ط١، ص١١٤، ١١٥

العصور تكثر أنواعها. ويتضخم عددها، حتى بلغت فى التراث العربى حدا لم تبلغه فى أى تراث لأمة أخرى معروفة فى التاريخ فى القديم والحديث"[١]. ويدلل على ذلك بالدليل بقوله: "ففى القرن الثانى عشر الميلادى كان كتاب "الاعتبار" للفارس العربى المسلم "أسامة بن منقذ" (٤٨٨ . ٥٨٤هـ) يعد نموذجا عالياً للمذكرات والتراجم الذاتية، قبل أن يكتب بيبيس الإنجليزى وريتز الفرنسى مذكراتهما بقرون"[٢].

إن المطلع على كتاب د/ شوقى ضيف يجد أن كتابة السيرة لم تنقطع عند العرب منذ قديم الزمان، مدللا على ذلك بكتابات أدبية، وأخرى علمية، وسياسية، وفلسفية.. الخ، كتابات متنوعة فى مجالات متعددة، يقول: "عندما رغب العرب فى تدوين أخبار شعرائهم وعلمائهم وأدبائهم، كانوا ينقلون عنهم مباشرة كثيرا مما يدونونه... وإذا تصفحنا كتاباً مثل الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وجدنا كثيرا مما يقصه عن الشعراء والمغنيين ينقل عن أفواههم. وخير مثال لذلك ترجمة إبراهيم الموصلى مغنى الرشيد المشهور.. ولعل الجاحظ المتوفى (٢٥٥هـ . ٨٦٨م) أكثر من عنى حتى عصره بتصوير نفسه فى كتاباته... ويجرى معه فى هذا الطريق، ممن كانوا يعجبون به وبأسلوبه، أبوحيان التوحيدى المتوفى (٤١٤هـ . ١٠٢٣م)؛ إذ كان يعانى من غربة فى أهل زمانه ولم يجد بينهم من يعرف فضله وعلمه وأدبه ويقدره"[٣] ثم يتوالى سرده للكتابات السيرية التى كتبت فى القرون المتتالية "فمن الأدباء العلماء الذين ترجموا لأنفسهم فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى: العماد الأصبهانى... وفى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، تكثر تراجم الأدباء والعلماء، إذ تصبح الترجمة الذاتية سُنة متبعة بين كثير منهم... ويتحدث ابن خلدون عن سيرة حياته فى تأليفه الذى أسماه "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا".. ويظهرنا التاريخ الحديث على أن المحدثين قد

(١) محمد عبدالغنى حسن ، التراجم والسير ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٣، ص١١
(٢) محمد عبدالغنى حسن، التراجم والسير ـ دار المعارف ، القاهرة، ط٣، ص١١
(٣) شوقى ضيف، الترجمة الشخصية، القاهرة، دار المعارف، ص٣٧، ٣٨ .

نهجوا نهج قدمائنا فى الترجمة لأنفسهم، وقد أطّلع من أتقن منهم اللغات الأجنبية على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية فكان القديم العربى والجديد الغربى باعثاً لهم على الترجمة لأنفسهم. ومن أهم من ترجموا لأنفسهم فى القرن الماضى: على مبارك الذى كتب فى مؤلفه "الخطط التوفيقية" سيرة حياته"(١).

ثم يأتى القرن العشرين فتكثر فيه الترجمات الذاتية "لا فى مصر وحدها، بل فى بلدان العالم العربى المختلفة"(٢). وتحتل السيرة الذاتية مكانها فى الفنون الأدبية فى هذا العصر، فقد ظهرت "الأيام لطه حسين" والتى تعد نموذجا عربيا قريبا من الفن السيرى الأوربى مع أنه يحتوى على خلل فى السرد يتمثل فى أن الراوى يستخدم ضمير الغائب بدلا من ضمير المتكلم والذى يعتبر شرطا هاما من شروط السيرة الذاتية حيث يتم التطابق بين المؤلف، والسارد والكائن السيرى، وكذلك "أنا للعقاد" و"حياتى" لأحمد أمين إلى جانب الكثير من النماذج الفنية الأخرى.

ولمن أراد المزيد من تلك السير، فعليه بالتوجه إلى المصادر والمراجع العربية القديمة والحديثة، ليرى بنفسه أن العرب قد عرفوا هذا الفن منذ قديم الزمان، وإن أراد دليلا يرشده إلى تلك المصادر، فليراجع "الترجمة الشخصية لشوقى ضيف، وفن السيرة لإحسان عباس، وأدب السيرة الذاتية لعبدالعزيز شرف".

بعد هذا العرض لا أملك إلا أن أؤكد أن السيرة الذاتية عرفها العرب منذ القرن الثانى الهجرى، فإذا نظرنا إلى أن الشاعر العربى إنما كان يتحدث عن سيرته فى شعره، عندما يتحدث عن نفسه، وعن قبيلته فى مفاخراته، وعن جوانب حياته المختلفة، ففى القرون الأولى حرص "الكتّاب على تدوينها فى مقدمات كتبهم متأثرين فى ذلك بالثقافتين اليونانية والفارسية. أما اليونانية فقد تأثر الكتاب العرب أكثر ما تأثروا بجالنيوس... وأما الفارسية فكان أثرها أقل من الأثر اليونانى

(١) شوقى ضيف، الترجمة الشخصية ـ دار المعارف ص٤٤، ٤٨، ١٠٠، ١٠٥ بتصرف.
(٢) شوقى ضيف، الترجمة الشخصية ، ١٩٨٧م، ص١١٠

إذ تأثر الكتاب العرب بمصدرين فارسيين الأول ترجمة كسرى أنوشروان... والثانى ما جاء فى بداية كتاب "كليلة ودمنة" الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية"(١).

وعلى أية حال فإننى أرى أن من قال بعدم وجود هذه السيرة عند العرب، نظر إليهم بعين لا يقبل العرب النظر إليهم بها، وغاب عنه أن الأجناس الأدبية تختلف بحسب الحضارات المنتمية لها "فنحن ننتظر من السيرة العربية القديمة أن تصل إلى حد تعري النفس الفاضح كما نجده فى اعترافات "أوغسطين" أو "روسو". ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الأدب العربى القديم عرف سيرا ذاتية، ولكن ليس بمفهومها الاصطلاحى الحديث، ولا بمستواها الفنى المعاصر"(٢).

وللإنصاف نؤكد على قول القائل: لقد "عرف القدماء الأشكال الرئيسية للترجمة الذاتية، كما عرفوا الترجمة الذاتية المصوغة فى شكل قصصى، بيد أنهم لم يعرفوا المصطلح الذى أسماه العرف الحديث فن الترجمة الذاتية"(٣).

بعد هذا العرض أرى من وجهة نظرى أن العرب قد عرفوا السيرة الذاتية كمصطلح قبل أن يعرفها الأوربيون بقرون كثيرة، إلا أن السيرة الذاتية الفنية قد سبق ظهورها عند الغرب، وتأثر بهم العرب وفى مقدمتهم "طه حسين".

ثانيا: عند الغرب:

اختلاف كبير ذلك الذى يدور حول زمن نشأة السيرة الذاتية، فانقسم الكتّاب والأدباء إلى فريقين، فريق يرى أن الغرب هم أول من عرف السيرة الذاتية، وفريق آخر يرى أن بذور نشأة هذا الفن تُنسب إلى العرب دون غيرهم من الناس، ولقد كنت أود أن أُشير إشارات موجزة تجاه هذا الموضوع، إلا أننى رأيت أن من تمام

(١) مقال السيرة الذاتية تاريخ وثقافة، ص١٤٠، ١٤١، نقلا عن الموت والعبقرية، عبدالرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، ١٩٤٥م، ص١١٧ ـ ١١٩ .
(٢)م.م خليل شكرى هياس، السيرة الذاتية العربية، تاريخ وثقافة جامعة الموصل، كلية المعلمين، مجلة أبحاث كلية المعلمين، مجلد ١، عدد١ ص١٣٨
(٣)يحيى إبراهيم عبدالدايم ،الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث ، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ص١٠٨

البحث أن أقف على هذا الأمر حتى تمامه، لأن هذه القضية وإن كانت شكليا لا تبدو فى مركز الأهمية، إلا أنها بالنسبة لى ولا أدرى لماذا؟ تمثل أهمية خاصة، يجوز لأننى لم أقبل بقول القائل إن العرب لم يعرفوا هذا الفن، ولم يصل إليهم إلا عن طريق الغرب، ولولا أن الباحث لا يجوز له إلا أن يكون حياديا، لحكمت دون الرجوع إلى أحد، أن العرب هم أول من عرفوا هذا الفن، وذلك لإيمانى بأنهم أرباب لغة البيان، وما من أدب فى الغرب، إلا وله جذوره فى الشرق، لذا أفردت لهذه النشأة مبحثا خاصا، فليس من المعقول من وجهة نظري على الأقل أن العرب الذين بلغوا شأناً عالياً فى أغلب الفنون الأدبية والعلمية، قد غاب عنهم هذا الفن، والذى أرى أنه يعود فى منبته إلى القصة، والقصة كانت ديدن العرب، وحياتهم، كما إن الشاعر الذى يفخر بقبيلته ويتحدث عن أمجاده وأمجادها، يعد نوعا من أنواع السيرة الذاتية، ومع كل هذا "فسواء عرف الأدب العربى هذا اللون من الأدب أم لم يعرف فإن هذا لا يعد عيبا"(١). وعلى أية حال فإننى سوف أعرض للرأيين فى حيادية تامة، وللقارئ أو الباحث أن يقرر بنفسه فى حرية تامة.

هناك من يرى أن السيرة تنسب إلى الحضارات القديمة فيرى إنها: "وليدة الحضارة المصرية القديمة مثل "ويل وايريل ديورانت" الذى يرى أن هناك برديات من الأدب المصرى القديم، يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ق.م يحتوى بعض منها على قطع من السير الذاتية"(٢)،

وإلى هذا يميل د/ شوقى ضيف، حيث يرى أن من أقدم التراجم الذاتية، ما كان ينقشه القدماء المصريين على قبورهم للتعريف بأنفسهم يقول: "واشتهر

(١)خليل شكرى هياس ،السيرة الذاتية العربية: تاريخ وثقافة، ـ جامعة الموصل ـ كلية المعلمين ـ مجلة أبحاث كلية المعلمين، المجلد (١)، العدد (١)، ص١٣٨

(٢) ويل وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكى نجيب محمود، الجزء الأول من المجلد الأول ص١١١

المصريون فى عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم، وفى معابدهم وهياكلهم من تواريخهم وأفعالهم"[١]،

أما الدكتور ماهر حسن فهمى، فيرى أن جذور السيرة متشعبة فى حضارات متعددة، يقول: "تاريخ السيرة الذاتية هو إلى حد كبير صورة من العقلية الإنسانية فى مغامراتها من أجل البحث عن الحقيقة، ومن أجل ذلك كانت جذورها الأولى متشعبة فى الحضارات القديمة، كالمصرية والبابلية والهلينية وغيرها"[٢].

ومن كتاب الغرب من يقول بهذا أيضا أى أن السيرة قديمة قدم الحضارات، إلا أنه يتعجب من الأبحاث التى تتناول هذا الأمر دون تحديد فترة زمنية معينة للوصول لنتائج مفيدة، يقول: "إن الأبحاث ذات النمط السلالى التى تعزل عنصرًا ملائماً فى الوقت الراهن من أجل تتبع آثاره بالرجوع إلى التاريخ لها إذن طابع وهمى"[٣]

أما من يقول بنشأة السيرة حديثا فكثر أيضا، منهم "جورج ماي" الذى يرى أن "هذا الجنس الأدبى حديث نسبيا بل لعله أحدث الأجناس الأدبية"[٤]

وهناك من يؤرخ لنشأتها باعترافات "جان جاك روسو" ومن ثم أصبح مؤلف "روسو"، "رمزا لنشأة جنس أدبى جديد"[٥] مع أنه لا ينكر وجود اعترافات سابقة لاعترافات "روسو" التى كتبها نهاية القرن الثامن عشر لكنه يرى أن اعترافات روسو هى النموذج المحتذى

(١)د/ شوقى ضيف ،الترجمة الشخصية ، دار المعارف، ط٤، ص٧
(٢) ماهر حسن فهمى، السيرة تاريخ وفن ، ، دار القلم، الكويت، ١٩٨٣م، ط٢،ص٢٢٥
(٣) فيليب لوجون، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ، ترجمة عمر حلى، ، المركز الثقافى العربى، ١٩٩٤م، ط١، ص٧٣
(٤) شكرى المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتى السيرة الذاتية فى كتاب الأيام لطه حسين ، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢م، ط١، ص١٠
(٥) شكرى المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتى، ص١٩

ويرى د/ عبدالعزيز شرف أن "اعترافات القديس أوغسطين (٣٥٤ . ٤٣٠م) تستحق لقب أقدم سيرة ذاتية باقية"[١]

ويعود الدكتور/ عبدالعزيز شرف مرة أخرى ليقول: إن "أقدم رواية لسيرة ذاتية باللغة الإنجليزية انحدرت إلينا، هى الكتاب الغريب والمستوعب "كتاب مارغري كيمب" الذى كُتب فى أوائل القرن الخامس عشر"[٢]

بعد عرض هذه الآراء أرى أن هناك تخبطا حول تحديد النشأة، كما كان سابقا حول تحديد المفهوم، إلا أننى ألاحظ أن البدايات التى عند الغرب لا تتعدى من الناحية الزمنية إلى الوراء القرن الخامس عشر الميلادى.

(١) عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية ، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ١٩٩٢م، ط١، ص٣٩
(٢)د/ شرف ،أدب السيرة الذاتية ص٣٩

المبحث الثالث
عناصر البناء الفنى للسيرة الذاتية

ليتحقق وجود البناء الفنى فى السيرة الذاتية، فلابد أن "يصوغها صاحبها فى صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق فى البناء والروح وفى أسلوب أدبى قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كاملاً، عن تاريخه الشخصى، على نحو موجز، حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم، وعذوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبى، وبث الحياة والحركة فى تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله فى حواره، مستعينا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله حتى تبدو ترجمته الذاتية فى صورة متماسكة محكمة، على ألا يسترسل مع التخيل والتصور حتى لا ينأى عن الترجمة الذاتية"(١)

وعلى الرغم من التباين والاختلاف بين الأدباء فى تحديد مفهوم للسيرة، أو مقومات موحدة لها "إلا أن هناك خطوطا عريضة تجمع بين مختلف أشكال السيرة الذاتية"(٢)

العنوان:

من الأهمية بمكان أن يكون العنوان دقيقا ومحكما، فمن خلاله يتحدد الجنس الأدبى الذى يتحدث فيه الكاتب، وحوله تدور الأحداث التى يريد أن يصل بها الكاتب إلى القارئ، كما أن القارئ يستطيع من خلاله أن يصل إلى عقلية الكاتب يقول محمد الجوادي عن أهمية اختيار عنوان المذكرات "عنوان المذكرات يمثل تحديا واضحا وصعبا أمام كل من يكتب مذكراته، كذلك يعكس العنوان الذى

(١) يحي ابراهيم عبد الدايم ،الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، ص١٠
(٢) راجع تهانى شاكر عبدالفتاح، السيرة الذاتية فى الأدب العربى، ص١٦

يستقر عليه المؤلف كثيرا من ملامح فكره وتفكيره، وإن كثيرا من العناوين تتميز بقدرة رائعة على إعطاء الإيحاءات المتعددة"(١)

كما أن الكاتب قد يقصد من خلال عنوانه أن يحدثنا عن الغاية أو الهدف من وراء كتابة سيرته، فمن الكتاب من "أراد أن يكتب ترجمة ذاتية أدبية، اتخذ لها اسما فيه ما يدل على الغاية التى تحدد ما أودعه فيها من محتوى"(٢)

إن طريق المتلقى الأول الذى يصل من خلاله إلى تحديد موضوع الكتاب، أو إلى تحديد جنسه ونوعه هو العنوان لأنه "للكتاب كالاسم للشئ به يُعرف، وبفضله يُتداول، يُشار إليه، ويُدل به عليه"(٣)

إن العنوان هو صاحب توطيد العلاقة بين المؤلف، وبين المتلقى، فكثير من العناوين أعطت إيحاءات ودلالات واضحة تنم عن قدرة كاتبها، وكثير منها جعل القارئ يقطع الصلة بينه وبين الكاتب أو المؤلف، فبالعنوان يمكن للكاتب أن يشوّق القارئ لإتمام قراءة الكتاب، وفى هذه الحالة تتضح حكمة وقدرة الكاتب، وبالعنوان يفرّ القارئ، ويعطى ظهره معترضا عن قراءة الكتاب، وهذا يعود إلى ضعف الكاتب، أو عدم تدقيقه واهتمامه بوضع عنوان جيد لموضوعه.

وبما أن السيرة الذاتية قد أصبح لها شكل مميز فإننا لا نرضى من الكاتب إلا عنوانا دقيقا محكما، يربط بينه وبين ما يكتب من موضوعات.

وبتطبيق ذلك على عنوان كتاب "صلاح نيازى"، "غصن مطعم فى شجرة غريبة"، "يفرض عليك الكاتب أن تحلّق فى فضاء أوسع، فعنوان الكتاب حمّال أوجه عديدة ومعان كثيرة وأبعاد عديدة، إنه اللحن الجميل والعذب، إنه لحن الحياة

(١) محمد الجوادى، مذكرات الهواة والمحترفين، فن كتابة التجربة الذاتية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٤
(٢) ابراهيم يحي عبد الدايم ،الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، ص١٠٩
(٣) محمد فكرى الجزار: العنوان وسيموطيقيا الاتصال الأدبى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨، ص١٥

النابض المزروع فى أرض قاحلة، إنه لحن الواحة فى سراب الصحراء الممتد بعيدا فى الأفق، إنه الغصن المعطاء والمطعم فى شجرة مزروعة فى أرض سبخاء"(١).

بنظرة فاحصة يتضح لنا أن كتاب "غصن مطعم فى شجرة غريبة" "يتضمن نبذة وافية عن أفكار المؤلف فى الحياة والسياسة والثقافة أكثر مما يفترض من السيرة الشخصية. ولذلك، رغم أن تقسيم الكتاب إلى فصول تحمل أسماء المدن التى شهدت خطواته، يشى بما يشبه السيرة، إلا أنه لم يضف إلى عنوان الكتاب –كما هو مألوف فى هذه الأحوال –سطرا يشير إلى مضمون الكتاب (سيرة أو فصول من سيرة) أو أن السيرة [ذاتية أو أدبية]" (٢)

لذلك نرى أن الكاتب قد وفق فى اختيار عنوانه، لأنه صور لنا الحياة على أنها خط بيانى وذلك من خلال النخلة المغتربة التى "جسدت أولى الأفكار الصادمة التى يهز بها نيازى مشاعرنا الداخلية حينما يلفت انتباهنا إلى النخلة العراقية ذات الجذع الملتوى التى يكاد رأسها أن يلامس سقف المبنى الزجاجى حيث يعقد مقارنة مؤلمة بينه وبين هذه النخلة المغتربة التى تشوّه نموها ليتساءل بصيغة استفهامية مفادها: "هل أنا كذلك أنمو مشوهاً؟" وهو سؤال جوهرى ينبغى أن يطرحه كل مغترب على نفسه سواء بنبرة عالية أم بصوت خفيض"(٣)

يقول الكائن السردى: "رأيت مبنى زجاجيا كبيرا، حين دخلته تصببت عرقا، درجات الحرارة استوائية. كل النباتات هنا استوائية. فى الوسط فوجئت بنخلة عالية، حزنت من أعماقى، جذعها ملتو (لم أر نخلة عراقية إلا وجذعها منتصب)

(١) د/ كاظم حبيب، كتاب غصن مطعَّم فى شجرة غريبة (سيرة ذاتية) للدكتور صلاح نيازى، جريدة الحوار المفتوح، العدد١٦٢٣، بتاريخ ٢٠١٣/٦/٢٢م٠
(٢) وديع العبيدى، جدلية الاغتراب والوهم بين صلاح نيازى وابن رزيق، الحوار المتمدن موبايل، ١/ ١٠/ ٢٠٠٦م
(٣) عدنا حسين أحمد، غربة المثقف العراقى فى المنفى البريطانى فى فيلم وثائقى ثقافى، الحوار المتمدن ، موبايل ١١/ ١٢/ ٢٠١٣م٠

كانت تعيش بالرغم عنها بحرارة اصطناعية. تنمو بالرغم عنها، وهى الآن لا يكاد يصل رأسها إلى سقف المبنى الزجاجى؟ هل أنا كذلك؟ أنمو مشوهاً"(١)

ومع ذلك فإن عنوان كتاب "نيازى" اتفق مع أغلب الكتابات التى تحدثت عما يجب أن يتحقق فى العنوان، من مثل قولهم:" العنوان مرجع يتضمن بداخله العلامة والرمز وتكثيف المعنى، بحيث يحاول المؤلف أن يثبت فيه قصده برمته"(٢)

وما قصد الكاتب هنا إلا أن يصور جوانب حياته المختلفة من خلال المقارنات التى استخدمها للوصول إلى هدفه، فها هو يقارن بينه وبين النخلة العراقية الملتوية التى تشوه نموها، كما نجده ساعة الغوص فى الأحداث يقارن بين الناس فى "لندن" والناس فى "العراق" مستخدما استدعاء الذكريات القديمة الخاصة به منذ الطفولة، والتى تعبر فى نفس الوقت عن كل العراقيين. إن من يقرأ الأحداث بعد أن فهم الدلالات من خلال العنوان، هذه الدلالات التى تشير إلى اغتراب الكاتب عن ثقافته، وعن جذوره، فهو يعيش غربة مكانية وغربة نفسية أيضا، لقد وفق "نيازى" فى اختيار عنوانه لما به من الكثير من الدلالات والرموز التى تنبئ عن هدفه ومقصده من خلال عمله الفنى. فمن دلالات العنوان رغبة الكاتب فى تصوير الآلام والمحن التى يعيشها فى غربته متأثرا بالحالة التى وصل إليه وطنه، وذلك من خلال الأحداث التى مرت عليه طوال حياته، إلى جانب ما أبهره من تقدم وحضارة فى لندن، فى حين أن أصحاب الحضارات الحقيقية وهم العراقيون عادوا إلى جاهليتهم الأولى.

الميثاق:

(١) السيرة صـ٧٠ .
(٢) جميل حمداوى، السيموطيقيا والعنونة، عالم الفكر، مج٢٥، ع٣، الكويت، ١٩٩٧م، صـ١٠٩ .

يتحدث "فيليب لوجون" عن الميثاق فيقول: "لقد استهوانى مصطلح ميثاق السيرة الذاتية.. لأن الميثاق يثير صورا خرافية، مثل "المواثيق مع الشيطان" التى نغمس فيها ريشتنا فى دمنا من أجل بيع الروح، فى حين يجعل العقد على دلالة أكثر نثرية إننا عند كاتب شرعى. إن مصطلح عقد يستتبع ويفترض وجود قواعد صريحة، ثابتة ومعترف بها لاتفاق مشترك بين المؤلفين والقراء، بحضور الكاتب الشرعى الذى يتم التوقيع عنده على نفس العقد، وفى نفس الوقت. وهو أمر لا يشابه فى شئ واقع الأدب"(١)

فمن الواضح أن "لوجون" ينكر وجود مثل هذا الميثاق فى العمل الفنى الأدبى، بدلالة اقتناعه بفكر "بول فاليري" الذى يقول: "إن كل حكم يقيم علاقة ثلاثية بين المنتج، والعمل، والمستهلك هو حكم وهمى"(٢)، إلا أنه ما يلبث أن يعود ويقول: "ومما لا شك فيه أن السيرة الذاتية تقترح اتفاقا مع المسرود له"(٣)

وبما أننا هنا لسنا بصدد مناقشات "لوجون"، أو عودته التى كثيرا ما نراها فى آرائه، فكثير ما نجده يلقى بالقول ثم يعود فيعترف بخطأه

إننى أؤمن بأن هناك ميثاق، أو عهد مشترك ما بين الكاتب والقارئ، وأول ظهور لهذا العقد، إنما يكون فى العنوان الذى هو بمثابة اتفاق بين الكاتب والقارئ، وكأن الكاتب يقول للقارئ إننى سأتحدث إليك فى موضوع كذا، فلك الحرية الكاملة فى الإقبال أو الإعراض، فإذا ما أقبل القارئ إلى تناول هذه الكتابة، وبدأ فى تدبرها، كان ذلك بمثابة عقد اتفاق مبدئى بينهما. فالميثاق فى

(١) فيليب لوجون، السيرة الذاتية الميثاق والذات، ص١٢، ١٣
(٢) السابق ص١٣
(٣) السابق ص١٣

السيرة الذاتية إذن "بمثابة العقد الذى يجعله كاتب السيرة الذاتية رابطا بينه وبين القارئ"(١)

لكن "فيليب لوجون" اشترط لتحقق هذا الميثاق وضعيات تنحصر "فى كون الشخصية، إما تحمل اسما مختلفا عن اسم المؤلف أو ليس لها اسم أو تحمل نفس اسم المؤلف، وفى كون الميثاق يكون إما روائيا أو غائبا أو ميثاقا للسيرة الذاتية"(٢) ثم يوضح أنه "يمكن لأى كتاب أن يقدم باعتباره رواية فى العنوان الفرعى، وباعتباره سيرة ذاتية فى المقدمة"(٣)

بتطبيق ذلك على سيرة "صلاح نيازى" يظهر لنا أن الكاتب قد عقد عقدا مبرما، وميثاقا مؤكداً مع قارئه عن طريق العنوان الذى حمل بين طياته ما يرمز إلى "نيازى" حيث هو الغصن المطعم فى شجرة غريبة، والشجرة إنما هى الثقافة العربية القديمة التى أصبح غريباً عنها من وجهة نظرى، فالأحداث وإن كانت تخصه، ويتحدث فيها عن نفسه، إلا أنها فى نفس الوقت يتفق معه فيها كثيرون من أبناء جلدته، كذلك يظهر الميثاق فى أن العمل غائى، أى أن الكاتب يهدف من ورائه إلى غاية معينة يتمناها كثيرون معه، فهدفه من خلال ذكره للأحداث ومن خلال صور المقارنة التى عقدها بين الشرق والغرب، سرد سيرة حياته فى مقارنة قد تفتقد إلى العدالة، لما بين الشرق والغرب من فوارق كبيرة، لذا جاء القسم الشرقى سيرة شخصية وسيرة مكان أكثر منه سيرة أدبية.

كانت غاية "نيازى" تصوير المعاناة التى يقاسيها أبناء الشعب العراقى، إلى جانب تصوير الآمال التى يرجوها لبلاده وشعبه، متمنيا من القارئ مشاركته هذه المعاناة.

(١) الهادى غابري، خصائص البناء الفنى فى السيرة الذاتية، علامات فى النقد، ع٥١، مجلد ١٣ ـ ٢٠٠٤م، ص٦٢٣
(٢) فيليب لوجون، ص١٤ مرجع سابق
(٣) فيليب لوجون ص١٥ مرجع سابق

هناك ميثاق آخر يتحقق من خلال تطابق المؤلف، السارد، الشخصية، إذ "ليس للشخصية اسم فى المحكى، لكن المؤلف يُعلن ضمنياً نفسه مطابقا للسرد وبالتالى يكون مطابقا للشخصية"(١) وهذا ما تحقق بالفعل فى "كتاب صلاح نيازى"، فالميثاق متحقق فى العنوان، مع أن الاسم لم يظهر ولو لمرة واحدة، "لكن ضمير المتكلم يحيل دائما إلى المؤلف"(٢)، فضمير المتكلم فى سيرة "نيازى" يدل على التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية، وبالتالى يتحقق الميثاق بينه وبين المتلقى. لذا رأينا "نيازى" لم يصرّح باسمه فى العنوان، أو فى سرده للأحداث، وإنما اكتفى فى ميثاقه باستعمال ضمير المتكلم، لأن هذا الضمير هو "المنسق لميثاق السيرة الذاتية وظيفة خلق وهم التواصل من شخص إلى شخص آخر"(٣)

السؤال الآن: هل كانت الشخصية الساردة صادقة فى ميثاق السيرة الذاتية بينها وبين القارئ؟ للإجابة على ذلك، لقد طرح الكائن السردى سؤالا فى خاتمة سيرته الذاتية كان بمثابة جواب لهذا السؤال، يقول: "هل كل ما كتبت فى هذه السيرة خديعة وتضليل؟"(٤)، لقد أجاب على ذلك أحد النقاد، مؤكدا على أنه "ليس خديعة بالطبع، ولكن الأفكار الاستهلالية لم تتضمن الجوانب الأُخر التى دفعته للهجرة. فلقد احتفظ بها لنفسه طوال عملية السرد، وما أن شارف على النهاية حتى فاجأنا بها جميعا، كالبحث عن الثقافة الحقيقية العميقة، والعيش مع النماذج البشرية المتحضرة التى تحترم إنسانية الإنسان، وتمجد خصوصياته الخاصة، وأكثر من ذلك فإنه وقع فى قلب الحيرة"(٥)

(١) فيليب لوجون، صـ٤٣ مرجع سابق
(٢) فيليب لوجون، ص٤٣ سابق
(٣) فيليب لوجون، ص٤٩ سابق
(٤) السيرة، ص١٨٣
(٥) عدنان حسين أحمد ـ الحوار المتمدن ـ موبايل، السيرة الذاتية ـ الروائية ـ غصن مطعم بشجرة غريبة ـ مثالا، بتاريخ ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٨م

تتمثل هذه الحيرة فيما صرحه لنا فى مقدمة سيرته من "أنه غادر العراق فى أوائل الستينات من القرن الماضى بدافع البحث عن موت كريم، لكنه تراجع فى خاتمة النص ليعترف بأنه بدافع البحث عن حياة أفضل، لكنه مع ذلك، أصبح غصنا مطعما بشجرة غريبة"(١)

من هنا يمكن أن نؤكد على صدق "نيازى" فى ميثاقه الذى عقده بينه وبين القارئ، وذلك من خلال العنوان، وكذلك المضمون الذى وضح من خلاله التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية، وسنفصل ذلك بطريقة أوسع عند الحديث عن "الضمير" ضمن تقنيات السرد الفنية.

الأحداث:

النظرة السطحية تجاه كتاب "صلاح نيازى"، "غصن مطعم بشجرة غريبة"، يظن أنه سيرة ذاتية تقف عند حدود تصوير الحوادث التى مرت بالكاتب، لكن الحقيقة هى أنه "قدم لنا رأيا فى الحياة وفى التأريخ العراقى القريب والمعاصر وتشكل شخصية الفرد العراقى، إنه حديث أقرب إلى الفلسفة ليصل إلى الحيرة، إنه حائر على بلده وهو يراه يتمزق ويتشظى، أخبار بلده تعذبه، ليست الحيرة فقط بل الغربة، هذه الغربة الغامضة التى لم يعرف لها سبباً، ويظل صلاح نيازى يطلق أسئلته بحثا عن اليقين، وما يقين لديه، وهو يرى كل شئ تذروه الرياح، ترى هل نحن أغصان مطعمة فى أشجار غريبة؟! ترى هل نحن أغصان مقطوعة من الشجرة الأم تيبست بفعل قساوة الظروف التى مرت على المجتمع العراقى، هل أقول أحالته هباءً منثورا؟!"(٢)

(١) عدنان حسين أحمد ـ الحوار المتمدن، مرجع سابق
(٢) شكيب كاظم الشاعر صلاح نيازى فى غربته الذاتية والموضوعية، السيرة الحياتية غصن مطعم فى شجرة غريبة، جريدة الزمان، جريدة عربية دولية مستقلة، ٣١ أغسطس سنة ٢٠١٤م

وللكتاب والأدباء وجهة نظر تجاه كتابات "نيازى" حيث يرون أن "كل كتابات نيازى المعروف شاعرا وناقدا وباحثا فى مجالات متعددة، ليست غير أقنعة متعددة للتعبير عن شخصيته وسيرته والتخفى فيها فى نفس الوقت لكن نصوصه الشعرية والنقدية لا تخلو من محطات سيرته وإشارات تظهر وتختفى بين السطور... صلاح نيازى شاعر فى نقده، وناقد فى شعره، مفكر فى سيرته، وسيروى فى فكره، مسؤول فى ثقافته، ومثقف فى مسئوليته، شغله سؤال الإنسانية، واستغرقته نزعات البشر، وحاصرته القضية الوطنية، فوجد نفسه فى عزلة عن المجتمع، يعيش فى العالم وهو خارج عنه، خارج عن وطنه وهو مهاجر فيه"(١)

اعتمد "صلاح نيازى" فى سيرته كما ذكرنا سابقا، المنهج المقارن فى الكتابة، ويعد هذا المنهج "جديدا فى كتب السيرة، فيصور مدن الشرق بمنظور الغرب، ويقدم صورة الغرب "لندن" بمنظور الشرق... ومن هذا المنظور –المقارن – تضمن القسم الشرقى للكتاب من السيرة الشخصية وسيرة المكان أكثر من السيرة الأدبية، والعكس من ذلك فى القسم الغربى منه، الذى ركز على الملامح الثقافية المقارنة ولم يكشف من الجانب الشخصى غير ما تفترضه الضرورة أو يرد عبر السياق"(٢)، هذا ملخص لمنهج "صلاح نيازى" فى كتابة سيرته، وطريقة تناوله للأحداث وكيفية سردها.

سيرة "نيازى" يتحدث فيها عن حياته من بدايتها إلى نهايتها، لكن الملفت للنظر أنها لا تهتم بالحياة قدر اهتمامها بالأحداث الهامة، لدرجة أن بعض النقاد جعله فى صفوف المؤرخين، وهذا على غير حق؛ لأن الحقيقة تؤكد على أنه

(١) وديع العبيدى، صلاح نيازى "صورة فى الثمانين"، ديوان العرب، منبر حر للثقافة والفكر والأدب، الخميس ١٩ مارس ٢٠١٥م
(٢) وديع العبيدى، جدلية الاغتراب والوهم بين صلاح نيازى، وابن رزيق، جريدة الحوار المتمدن، موبايل ١/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

أقرب إلى الناحية الأدبية؛ وذلك ناتج عن اهتمامه بأحداثه للدرجة التى جعل القارئ يشاركه أحاسيسه ومشاعره وانفعالاته الداخلية والخارجية.

لأحداث السيرة الذاتية أهمية كبرى لأنها "ركن من أركان السيرة، وتؤثر فى بقية الأركان الأخرى، ولكل حدث تأثيره فى الشخصية التى قامت به، مثلما يؤثر فى الشخصيات الأخرى"(١) ويعد إقدام "صلاح نيازى" على كتابة سيرته جرأة كبيرة؛ لأن كثيرا من الكتاب يخشون القيام بهذا العمل؛ بسبب وعورته، وشروطه الفنية التى يعجز عن تحقيقها كثير من الكتاب فى أعمالهم الأدبية.

لقد حرص "نيازى" على سرد أهم الأحداث التى مر بها فى حياته، وكذلك أهم المؤثرات التى عملت على تكوين شخصيته فكريا وأدبيا وثقافيا وخلقيا، وذكر لنا أيضا الشخصيات الهامة فى حياته، خاصة الشخصيات العلمية، إلى جانب أنه اعتمد فى بنائه لسيرته على إثبات الحقائق التاريخية، ونقل الواقع نقلا يميل فيه إلى التقرير، إلى جانب التفسير والتحليل للكثير من الأحداث.

لقد استخدم الكائن السردى، فى سيرته "تيار الوعى الروائى وانثيال الأفكار.. يتضح هذا فى عقد المقارنة بين تصرف الشرطى اللندنى، وتصرف أحد طلابه الذى صرخ فيه صلاح من غير أستاذ، كما سيتضح لنا عند ذكر المثال عند تناولنا للأحداث"(٢).

العيوب الفنية فى سيرة "نيازى":

من أهم العيوب أنه "لم يرد فى السيرة – إلا نادرا – ذكر لأسماء الشخوص، كما جاءت خلواً من التاريخ صلاح نيازى لا يؤرخ لنا الحوادث، إذ هو لم يكتبها

(١)تهانى عبدالفتاح شاكر، السيرة الذاتية فى الأدب العربى ،فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا ، المؤسسة المصرية للدراسات والنشر، ط١، سنة ٢٠٠٢م ، صـ٩٦

(٢) شكيب كاظم، الشاعر صلاح نيازى فى غربته الذاتية والموضوعية، جريدة الزمان، عربية دولية مستقلة، ٣١ أغسطس ٢٠١٤م بتصرف

فى حينها، كى يؤرخها، بل كتبها بعد حين من الدهر، قريبة من السرد الروائى، وقد علل لعدم التأرخة بأن استذكاراته هذه، إنما مثلت خليطا، بوتقة اختلطت فيها الحوادث، فما حدث فى الطفولة، لم ينقطع، نما وتداخل وتفاعل، بدأ ولم ينته بعد"(١).

ذكرت ذلك لأن إثبات التواريخ، والتصريح بأسماء الشخصيات والأماكن أمر ضرورى، بل من أهم الأدوات التى يستعين بها كاتب السيرة؛ لأن هذه التقنيات تعزز حقيقة ما يذكره من واقع يعتمد على الذاكرة والاسترجاع، وهذا ما دعانا للعجب فى بادئ الأمر، إلا أنه أزال هذا العجب بتوضيحه الذى ذكرناه سابقا.

لقد نال سيرة "نيازى" بعض الخلل الغير معهود لدى الكتاب عند حديثهم عن أنفسهم، فهناك فجوات عميقة فى هذه السيرة عملت على إحداث بعض الخلل فى سردها الكتابى، لعدم معقوليتها، وذلك مثل "وصوله لندن الباردة بملابس صيفية، فلا نعرف كيف حصل على غرفة لدى العائلة الإنجليزية دون معونة من أحد أو لغة. ولا يفصح عن سبب سفره بمفرده تاركا زوجته التى [تتكلم الإنجليزية بطلاقة] وطفلته الوحيدة. وأسرف فى معاناة العوز والغربة التى قتلها بالانصراف لتعلم اللغة والتعمق فيها، ويفجؤنا قبل نهاية الكتاب بحصوله على درجة الدكتوراه دون ذكر اسم الجامعة أو الأستاذ أو الأطروحة، هذه الدرجة العلمية إذا لم تدخل فى السيرة الشخصية فهى تشكل جزءا أساسا من السيرة الأدبية والثقافية، والسيرة –أية سيرة –وإن ارتبطت بالفرد وخصوصياته فإنها عندما تكتب تصبح مدينة للتأريخ، ومن حق القارئ أن يقرأ سطوراً كاملة غير مجزوءة أو مجتزأة"(٢)

تلك هى أهم العيوب التى لحقت بهذا الكتاب الأدبى الهام، والمتفرد فى تجربته ومنهجيته، ومنهج كاتبه المختلف عن كثير من كتب السيرة الذاتية، ومن

(١) شكيب كاظم، السابق
(٢) وديع العبيدى، جدلية الاغتراب والوهم بين صلاح نيازى، وابن رزيق، دورية سابقة

المعلـوم أن فـن السـيرة يعتمـد علـى ركـائز أساسـية، منهـا المـذكرات، والـذاكرة، والتأريخ.. وغيرها، إلا أننا نجد أن "نيازى" فى سيرته قد اعتمد طريقا واحدا، وهو طريق "الذاكرة"، ولم يعتمد على المذكرات أو التأريخ، أو غيرها، وذلك يعد من أخطر العيوب؛ لأن الاعتماد على الذاكرة يعقبه سقوط كثير من الأحداث التى مرت بالكاتب، مما ينتج عنه خلل فنى من حيث تسلسل الأحداث، بل نستطيع أن نقول: أن الكاتب السيروى قد يفقد الذاكرة تماما فى بعض الأحيان، يقول "نيازى": "ولدت عام ١٩٣٥م (على أفضل تقدير) بمدينة الناصرية. أول ما وعته ذاكرتى . وكان عمرى حوالى سنتين . جانب السلم من بيت كبير بالموصل، حيث كان والدى ضابطا بالجيش، غابت الذاكرة بعد ذلك، وعادت على مشهد والدى على فراش أبيض فى غرفة بمفرده... ثم تغيب الذاكرة نهائيا. هل مات؟ أين دفن؟ كيف عدنا إلى الناصرية؟ أين أخواى؟ هل كان لدى أخوان؟"(١)

كل هذه الأسئلة التى طرحها لم تعيها الذاكرة، وبذلك تكون أسقطت أحداثا كثيرة، قد تكون لها أهمية فى تسلسل الأحداث وتقدمها، كما أننا نلاحظ عملية توالد الأحداث، فنجد حدث ينشأ من حدث آخر، وما ذلك إلا لعدم ترتيب الأفكار، وتـأريخ الحـوادث مـن وجهـة نظـرى، كمـا أن الـذاكرة لـم تسـعف الكاتـب بتـذكر الأحداث، مما أدى إلى خلل فنى فى بناء أحداث السيرة، كما أن هذه العيوب جعلتنا نشعر بفراغات كبيرة تحتاج إلى ملئها، وبالتالى كان على الكاتب فعل ذلك، وبما أنه لم يقم بذلك، فقد فقدت سيرته فى بعض الأحيان عملية التسلسل المنطقى للسرد الحكائى، مما جعل السيرة غير مكتملة؛ نتيجة إلحاق العيوب الفنية بها. لقد أسقط "نيازى" الكثير من الأحداث، نتيجة فقدان الذاكرة، أو النسيان، مما سبّب إعاقة لتقدم التسلسل السردى، بسبب الفجوات التى أشرنا إليها سابقا، إلى جانب ذلك عيب خطير عند الكائن السردى، أنه لم يكن يطيق حمل الدفاتر

(١) السيرة، ص٧

وكتابة المذكرات، يقول: "نظرت إلى دفتر مذكراتى الذى اشتريته قبل أسبوع حيث قررت الانكباب على كتابة ما أمر به من تجارب. لم تكن لى أية رغبة فى قراءة ما كتبت. من باب الفضول نظرت نظرة جانبية باستعلاء، إلى بعض الأسطر فى صفحة على التعيين. عدت وقرأتها من البداية، ثم عدت وقرأت الدفتر من البداية.. شدنى الألم وانتابتنى حيرة مدوخة.... ما جدوى ما أكتب؟... نظرت إلى الدفتر بحنان. قرأت بعض صفحات تأثرت مما كتبت، واندهشت كيف صغت بعض الجمل؟ أمسكت بالدفتر وظل ينبض بين يدى، وبدون تفكير مزقته وأعدت تمزيقه إلى قطع أصغر، حتى لا أعيد ترتيبه من جديد، ورميته فى المزبلة"(١)

تلك هى أهم العيوب التى أخلت بفنية السيرة عند "نيازى"، والتى تسببت فى خلل فنى تمثّل فى إسقاط بعض الأحداث، وحذف أخرى، ونسيان ثالثة، أدى ذلك إلى الاستطراد فى الأحداث، أو تذكر أحداثا عن طريق أخرى، مما سبب خلل فى بناء وتسلسل السيرة، وإعاقتها عن التقدم والتطور إلى الأمام فى الأحداث.

لقد غاص "نيازى" من خلال أحداث السيرة الذاتية فى المجتمع العراقى، وكشف القناع عن كل مستور، غير راغب فى فضح مجتمعه، لكنه فى نفس الوقت يرغب فى تخلى مجتمعه عن كل الصفات السمجة التى يتمسك بها أبناء وطنه، أو قل أغلب المجتمعات الشرقية.

وبما أننا ذكرنا أن "نيازى" قد اتخذ منهجا جديدا فى كتابة سيرته – المنهج المقارن –فلن يكون اهتمامنا كبير تجاه كثير من الأحداث التى لا تدخل تحت هذا المنهج، وإنما سيكون اختيارنا للأحداث التى تمثل حدوث مفارقة كبرى بين الشرق والغرب، أو بطريقة خاصة بين "لندن"، و"العراق". والآن نعرض لأهم الأحداث التى احتوى عليها هذا العمل الأدبى.

(١) السيرة صـ١٢٢، ١٢٣ .

"لا تبدأ "غصن مطعم بشجرة غريبة" بداية تقليدية، فكل شئ فيها متداخل: الزمان، المكان، الأحداث، الشخصيات وما إلى ذلك. ولعل أغرب ما فى هذه السيرة بنيتها المعمارية المراوغة، فالفكرة الأساسية التى يقوم عليها النص السيرى تبدأ من نهاية الفصل الثانى، علما بأن هذه السيرة مقسمة إلى ستة فصول وهى "الناصرية، بغداد، حلب، تركيا، ميلان، لندن"(١).

مما يؤكد هذا التداخل، والخلط، قوله: "لم أكن أمثل مراحل حياتى. كنت أعيشها متداخلة، بوتقة خليط، وكأنها عنصر واحد، رغم تعدد عناصرها، وزمن واحد رغم تعدد أزمانها. ما وقع لى فى طفولتى، لم ينقطع. نما وتفاعل وتداخل. بدأ ولم ينته. بوتقة خليط. ربما لهذا السبب، استغنيت عن التواريخ فى هذه السيرة لأنها تاريخ واحد متواصل لا يمكن تجزئته إلا مجازا"(٢).

ذكرنا سابقا أن "نيازى" قدم لنا من خلال سيرته الذاتية رأيا فى الحياة، وفى التأريخ للعراق، هذا الرأى نابع من حيرته على وطنه الذى يراه يتمزق أمام عينيه دون أن يقدم له شيئا؛ نظراً لعجزه؛ لأن هناك قوة غاشمة متربصة بكل أبناء الوطن؛ لهذا لم يكن أمامه مفر من الهروب إلى خارج العراق. ولكن من حق القارئ أن يكرر السؤال، لماذا يهرب من العراق ولم يواجه مصيره لينال موته فى كرامة؟ نجد الإجابة على لسان الكائن السردى والتى تتمثل فى المشاهد التى جعلته يقرر الهروب من العراق، من أهم هذه الأحداث التى يقول فيها: "جاء البعثيون إلى الحكم رأيت عبدالكريم قاسم فى التلفزيون مثقوب الجبهة وعيناه مفتوحتان. رأيت الجندى وهو يهز رأسه الميت من شعره"(٣).

(١) عدنان حسين أحمد، السيرة الذاتية ـ الروائية ـ غصن مطعم بشجرة غريبة ـ مثالا، الحوار المتمدن ـ موبايل ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٨م.
(٢) السيرة صـ٢٠٤، ٢٠٥ .
(٣) السيرة ص١٣٣

ليس هذا وفقط، فقد استدعت ذاكرته حادثة أثرت فى نفسه أيما تأثير لأنها تصور لنا، كرامة الإنسان أهدرت منذ الصبا، هذه الحادثة التى كان ديدن المعلم فيها سبه بأمه، يقول: "شتمنى المعلم بكل بذيئة، كانت أمى على لسانه "قحبة" عادية وسحاقية، ووالدى قرناناً قواداً ومأبوناً. رفع السماعة خاطب منظمته: وصل هذا الابن ال"قحبة" الشيوعى. طبيعى "نكسر عينه" جر مسدسه من حزامه ووضعه على الطاولة. وصرخ: قم انزع بنطلونك من الآن. حضِّر نفسك سنشقك شقاّ هذه الليلة"(١)

ومن الحوادث التى كانت سببا فى الهروب أيضا، حادثة أخيه التى أصيب فيها: "أخاف من كل خطو يسير ورائى فى الليل، انغرزت السكين فى ظهر أخى من الخلف، أحمل سكينا أبديا فى ظهرى"(٢)

وهذا الأمر بالذات جعل "نيازى" فى رعب وخوف لأنه تصور أن هناك من يمشى خلفه حاملا سكينا من المتوقع طعنه بها فى أى وقت، وستكون الطعنة من الخلف؛ نظرا لضياع المبادئ والقيم، مما جعل الكائن السيرى يصل لدرجة الاختناق، يقول: "اختنقت، اختنقت، أمنيتى الوحيدة لا الوصول إلى لندن، لا العيش فيها، ولكن الموت فى مكان آخر. الموت بإرادتى أقصى حلم، أردت "أن أحس اللذة السوداء فى الوفاة" كما قلت مرة فى قصيدة "كابوس" أردت أن أختار نوع موتى، كما اختار السهروردى موته. كان أشق شئ علىّ أن يشفى قاتلى غليله. أن أموت تحت قدميه وآلات تعذيبه مهاناً مذلاً، أمنيتى أن أحرمه من إشباع حقده"(٣).

(١) السيرة صـ١٢٩
(٢) السيرة صـ١٣٦
(٣) السيرة صـ٣٨، ٥١

ضاق الأمر بالكاتب ذرعا لدرجة جعلته يراوغ فنياً فى حديثه، حيث يؤكد لنا فى الفقرة التالية انتهاء حياته بالفعل، يقول: "انتهت حياتى حقا، وإننى ذاهب للتفتيش عن موت كريم"(١) ثم يؤكد ذلك بقوله: "كل يوم جديد هو إطالة فى دفنى خارج تلك الحدود الطاحنة"(٢) وفى هذا تأكيد على إصراره على الهرب خارج تلك الحدود التى أبيد فيها كل ما تعنيه كلمة تكريم بنى آدم، ولما بدأ الأمر يتضح لدى الكاتب . أمر خروجه من العراق . أخذ يتحدث عن حريته التى حصل عليها بعد عناء طويل، وإرادته التى أصبحت ملك يده، يقول: "الآن أستطيع أن أقرر مصيرى فى أية لحظة، أصبحت إرادة موتى بيدى، وهو حق لا أريد لأحد أن يفرضه علىّ بالتجويع والتعذيب والإذلال"(٣) من خلال ما ذكرنا من أحداث نشعر أن مسألة الموت فى كرامة من المسائل الهامة التى شغلت الكاتب إبان الفترة السقيمة التى عاشها فى العراق، فكل بغيته وهدفه أن يموت فى كرامة ويكون الأمر بيده لا بيد غيره، وفى هذا توضيح للصورة التى كان عليها العراق، حيث الذل والهوان وإهدار كرامة الناس، وذلك فى فترة الستينيات التى تمثل فترة الصراع السياسى الحقيقى، حيث لا استقرار فى الحكم، فالكل يريد أن يصل حتى ولو حساب الشعوب.

تسير بنا الأحداث والتى يبدو من خلالها أن الكائن السيرى استطاع الهروب من العراق، ليحقق رغبته الجارفة المتمثلة فى الموت بإرادته، يقول: "غمرتنى النشوة ثانية، حينما تفتحت أمامى أوربا خضراء شاسعة. إذن –قلت لنفسى –هذه أوربا وكلها قبر لى، ومرة واحدة شعرت بلذة الانتصار، كمن يخاف المشنقة فيتلذذ بقرص للموت"(٤) من هنا قرر الكاتب أن ينظر إلى الأمام؛ لأنه بدأ حياة جديدة

(١)السيرة صـ٣٩
(٢) السيرة ص٤١
(٣) السيرة ص٥١
(٤) السيرة ص٥١

تختلف تماما عما رآه من عذابات وآلام، يقول: "قررت أن لا ألتفت إلى الوراء بعد اليوم، أحببت القطار لأنه كان يخب بقوة إلى الأمام، يدخل فى الأنفاق الجبلية المظلمة ويخرج بقوة إلى الامام، هديرك أيها القطار أجمل تهويدة أم فى أذنى اليوم"(١)

تسير الأحداث فى مسارها الفنى حيث التسلسل والتقدم إلى الأمام، فالكاتب قرر ألا يلتفت خلفه، لذا نراه قد بدأ مراجعة النفس ليعرف ما لها وما عليها، يقول: "كنت أقترب من نفسى أكثر فأكثر. أتحدث إليها، وأتحاور معها. فرحت باكتشاف ممالكى المطمورة، كل تجاربى الماضية وكل قراءاتى السابقة قد أبعدتنى عنى. شرعت أهاجر إلى الداخل هذه المرة"(٢) وفى هذا أيضا دلالة على امتلاكه لكثير من المواهب التى قتلتها ظروف وحالة البلاد السيئة، والتى ستتفتح الآن كما تتفتح الزهور فى فصل الربيع، فمواهب الرجال تحتاج إلى الحرية والاعتناء بها لتظهر ظهور القمر الساطع عند اكتماله

تتسلسل الأحداث فى بنائها، لنجد أنه من الطبعى أن يتعلم لغة القوم الذين يعيش بينهم، ليكتشف أشياء هامة من خلال دراسته لهذه اللغة، مؤكداً على أن رحلة تعليم اللغة ليست بالسهلة مطلقا، يقول: "إن الجملة الإنكليزية ليست يقينية جافة. تسمع الجملة الإنكليزية، وكأنما اشترك فى صياغتها شخصان فى آن واحد: أحدهما يروى وآخر يعترض، لذا تكثر فيها خطوط الرجعة، والجمل الاعتراضية، وكل ما يقلل من يقينيتها. إلى ذلك فهى لا تغفل عن الاحتمالات غير المتوقعة"(٣)

(١) السيرة ص٥١، ٥٢
(٢) السيرة ص٥٧
(٣) السيرة، ص٦٥

وهذا ما حدا بالكاتب أن يعقد مقارنة بين الجملة الإنجليزية، والجملة العربية، فيرى "أن الجملة الإنكليزية تلك غير معينة بالجانب الغيبى، وإنما بالجانب القانونى، وبالمنطق فى آن واحد"(١)

ولا أدرى سببا لهذه المقارنة؛ لأن ما ذكر أمر طبيعى، فكيف للإنجليزية أن تكون غير ذلك؟ وهل مطالبة بأن تعنى بالجانب الغيبى؟ لا يمكن أن يتحقق لها ذلك؛ لأن اللغة تعتمد على عقيدة صاحبها، وطبيعته، وثقافته، ودرجة تفكيره تجاه الإنسانية، ففى العربية يُلحق الإنسان بكل فعل سيقوم به "إن شاء الله"، وهذا أمر غير معنىٍّ به الغرب وجمله التعبيرية، فهذه أول مقارنة أراها غير منصفة من وجهة نظرى الشخصية.

ذكرنا سابقا أن الكاتب اتخذ لنفسه منهجا جديدا يختلف كثيرا عن المناهج التى يسير عليها كتاب السيرة، وهو المنهج المقارن، فكان لابد له من الحديث عن بدايات الإنسان العراقى منذ صغره، وكيفية تكوين شخصيته، محاولا من خلال هذا الحدث أن ينبه إلى قضية اجتماعية خطيرة يشربها الطفل مع ألبان أمه، ألا وهى قضية الغرور، يقول: "الأم العراقية ترضع طفلها الغرور مع الحليب: أجمل طفل، أفضل طفل فى المدرسة، درجاته أعلى الدرجات بين أقرانه، المعلمون يستغربون من ذكائه، جاء بالمرتبة الأولى. بجمل كهذه تنمى الأم فى طفلها روحا ديكية، قوية فى المظهر، هشة فى الداخل، والديك مهما كان تطوّسه، أجبن من عليها"(٢)

لا يحتاج المشهد إلى توضيح، فتكاد تكون هذه هى عادة الشعوب العربية عامة، وليس العراق فقط. لقد كان الكاتب صادقا فى عرض أحداثه، حتى وصل لدرجة الحديث عن نفسه، مكتشفاً لعيوبها وحسناتها، ففى هذا الموقف لم يستثنى نفسه من بين أبناء الشعب العراقى، وإنما أكد على أنه أصابه ما أصابهم، يقول:

(١) السيرة، ص٦٥
(٢) السيرة ص٦٨

"شربت الاعتداد بالنفس والطموح، منذ البداية، وها أنا اليوم أحاول شيئا مستحيلا، أريد أن أعزل حليب الأم الأول عن تلك الأمراض الخطرة المعدية"(١)

قد تكون السعادة أصابت "نيازى" فى صغره عندما كان يوصف بهذه الأوصاف؛ إلا أنه الآن وبعد أن أحدث مقارنة بين الشرق والغرب باتت هذه الصفات مذمومة؛ لأنها شبه الحشائش التى تلتف على سيقان الأشجار، ففى شكلها زينة لهذه الأشجار ،ففى شكلها زينةٌ لهذه الأشجار، أما حقيقتها فإنها تعيقها عن النمو والإنتاج، هكذا الكلمات الخادعة التى ألقت بها الأم على الابن، ما من طائل ورائها إلا الغرور والتوقف عن التقدم، ولكن حسبنا أن نقف عند أمر هام، وهو التفريق بين الاعتداد بالنفس، وبين الغرور، لما بينهما من فواصل قريبة، فالاعتداد بالنفس محمدة، أما الغرور فمذمة.

هذه المواقف دعت الشاعر يتمنى التخلص من هذه العيوب، يقول: "كيف أستطيع أن أتخلص من بيئة جبلتنى ستة وعشرين عاما. حقا، لقد افترضت أننى ولدت من جديد، حين نجوت، وكنت سعيدا أن أموت بعيدا، ولكنه افتراض خاطئ، لم أحسن التعبير عن الحالة الشاذة التى كنت أمر بها الحالات الشاذة تولّد استنتاجاً لا منطقياً"(٢)

انطلق الكاتب من هذا الحدث نحو حدث آخر، اقترح فيه "معظم شعرنا، معظم نثرنا يجب أن يدخل إلى مستشفى الأمراض النفسية"(٣)

وذلك لترسّخ فكرة الغرور العربى عنده، مما جعله يعتقد أن أغلب ما قيل من أشعار ونثر يحتاج إلى تنقيح؛ نظراً لما تتمتع به الشخصية العربية من اعتزاز بالنفس زادت فيه حتى وصل لدرجة الغرور، ويذكر لذلك حادثة كان قد تعرض

(١) السيرة ص٦٨
(٢) السيرة ص٦٨، ٦٩
(٣) السيرة ص٦٨

لها حين كان على محطة بغداد، والتى كانت تحاط بالعسس، والحراس، والمخبرون، يختلطون جميعا بالمسافرين، فما كان منه إلا أن لجأ إلى كتاب "الحماسة" لأبى تمام، وما كان من المفتش للحقيبة وهو عريف عسكرى إلا أن سأله عندما أمسك بالكتاب "ترى أنا نجس"[١]،مما يؤكد جهله، لأنه لم يستطع التفرقة بين ما هو قرآن، وما هو غير قرآن، وهذا ما يقصده الكاتب تجاه هؤلاء، يؤكد ذلك قوله: "خفت أن يقول له الحارسان القوميان الشابان إن هذا الكتاب ليس قرآناً، نزلوا بزهو العارفين"[٢].

تحدث الكاتب عن أبيات "ودّاك بن ثميل المازنى" الذى يقول من ضمنها:

"إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان

قرأت الأبيات عدة مرات بصوت إيقاعى. حاولت فى البداية أن أجد أية علاقة لى مهما كان ببنى شيبان وآل مازن. هل أنا حقا من أولئك الذين يهبّون لأية حرب، وبأى مكان؟ قلت بنفسى... لماذا لم يصوّر الشاعر "ودّاك"، شروقا نقيا رحيما، أو غروباً أحمر ناعماً، فيجعل الحياة كبيرة كالجبل وملمومة كالرحم. لقد خذلتنى يا ودّاك بن ثميل المازنى وحق الكعبة، ما الذى أفعله بشعرك فى هذا البلد الغريب"[٣]

فالكاتب هنا يتحدث بالتأكيد عن العرب، لأنه يرى أن هناك أمورا أهم مما تحدثوا فيها عن أنفسهم كان يمكن أن تعود فائدتها على الناس جميعا، المفارقة العجيبة أن الكاتب لم يُخرج نفسه من بين هؤلاء، إنما يتحدث عن نفسه على أنه منهم حتى مع تراخى الزمن، بغيته فى ذلك توضيح تمكن صفة الغرور الذميمة

(١) السيرة ص٧١
(٢) السيرة ص٧١
(٣) السيرة ص٧١، ٧٢

من العرب على شتى الأزمان قديما وحديثا، وما علم بذلك إلا عندما نظر فى المرآة الغربية فى لندن ليشعر بمدى خطورة هذا الأمر.

يقول الكائن السيرى "كتبت فى بداية حياتى الشعرية قصيدة على بحر الهزج لم يبق فى ذاكرتى منها سوى هذا البيت، وليته لم يبق: "تعالى ننهب اللذات من غفلات دنيانا" الصبيان أنصع انعكاس للبيئة وللتراث. هل صنعا من عجينتى البريئة مخلوقاً كاذباً ولصاً أيضاً؟ لم أكن فى تلك السن قد عرفت الحب بعد، ولا أعرف ما هى اللذات التى ذكرتها، ومن أين جاءتنى "ننهب"؟ من التراث أم من البيئة؟ لاسيما إذا اقترنت بـ"غفلات"؟ أهذه صورة حب طبيعى، أم أنها عملية سطو؟ ولكن سطو على من؟ على دنيانا؟ لماذا عاملتها معاملة عدو لا يرحم؟ ثم لماذا قلت "تعالى" باستعلاء؟ لماذا لم أقل دعينا، أو هيّا؟ فى البيت أعلاه الذى يتكون من ثلاثة أفعال وثلاثة أسماء. خمس مخالفات قانونية مرة واحدة، والإثم أكبر أنها كلها كذب بكذب"(١)

يؤكد من خلال هذا الحدث على غرور الشخصية العربية عامة، والعراقية خاصة ويرجع ذلك إلى البيئة والثقافة والتراث، كما يؤكد على احتياجنا لأقراض منع الغرور، تلك الوصفة التى منحته "لندن" إياها، يقول: "يجب أن أعترف أن العلاج الذى أعطتنى إياه لندن مجانا هو أقراص منع الغرور"(٢)

لقد زاد الكاتب من إلحاحه على توصيل هذه الفكرة، بل وأطال الحديث عنها فى رسالته، فها هو يذكر لنا بعض النماذج التى تتمتع بهذه الصفة وهى كثيرة، ويرجع ذلك الأمر إلى البيئة، يقول: "حقا لقد جئت من بيئة، يكتب فيها أحد العازفين على غلاف أسطوانة بأنه "أعظم عازف عود منذ النبى داود".... جئت من بيئة يقول فيها شاعر معاصر بأنه قرأ الشعر الفرنسى من بدايته إلى الآن.

(١) السيرة، ص٧٧، ٧٨ .
(٢) السيرة ص١٦٧ .

ويقول فيها مغنٍّ بأن كل المغنين يقلدونه ولم ينجحوا، وحين سئل عن الصفة التى يكرهها فى شخصيته أجاب بكل ثقة: التواضع. جئت من بيئة يقشعر فيها وجه شاعرها الأكبر إذا ما ذكر بوشكين أو بودلير أو شكسبير، ولو عابراً، فى مجلس يضمّه. استمعت مرة إلى أسرى عراقيين ينشدون فى راديو طهران:

يـــا خمينـــى ســـير ســـير .:. احنـــا (نحـــن) أبطـــال التحريـــر

قلت أسرى وأبطال! بالأمس تقاتلونهم، واليوم أسرى لا تذهبون إلى المراحيض إلا برخصة وها أنكم الآن تنشدون "احنا أبطال التحرير" "[١]

أمور تدعو للعجب، أسرى ويدّعون أنهم أبطال، أراد الكائن السردى أن يُلفت نظرنا إلى جعجعة فارغة تسمعها من هؤلاء، وما ذلك إلا نتيجة الداء المتفشى فيهم –داء الغرور –، وذلك ما دعا الكاتب أن يقترح أن "توزع عينات من هذه الأهازيج على المختبرات النفسية لدراستها والتوقف عندها لأنها أصل كل داء فى مجتمعنا"[٢]

ينتقل بنا إلى الحجاج بن يوسف الثقفى وخطبته بالكوفة أيضا:

" "أنـا ابـن جـلا وطـلاع الثنايـا .:. متـــى أضـــع العمامـــة تعرفـــونى

يا أهل الكوفة، إنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإنى لصاحبها... وكأنى أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، أنفتخر حقا بهذه الدموية المتوحشة... ثم يتحدث عن البيئة التى جاء منها ويفتخر فيها الشاعر بقوله:

إذا بلـــغ الرضـــيع لنـــا فطامـــا .:. تخـــر لـــه الجبـــابر ســـاجدينا"[٣]

(١) السيرة ص١٦٩، ١٧٠
(٢) السيرة، ص١٧٠
(٣) السيرة ص١٧١، ١٧٢

وضح لنا أن الشخصية العراقية تعانى من هذا الداء دون أن تدرى ذلك، لدرجة نقول فيها أن الغرور فاق الحد، بل أمر حدث فيه إفراط، وما ذلك إلا لأن الشخصية العربية حملت لبعض صفات العناد، والوهم، والعلو، والتكبر والصلف، وهى أمور فى مجملها تؤدى إلى الغرور الأكبر.

يتمتع كاتبنا بصفة الصدق فى عرضه لأحداثه، حيث لا ينكر فى كل الأحوال، أنه من أبناء هذا الشعب، يحمل لما يحملون من جينات وراثية، حتى وإن كانت الأمور ذميمة مثل صفة الغرور، فها هو يعترف أنه وقع ضحيته الغرور، وذلك فى حديثه عن صاحب البيت الإنجليزى الذى استأجر منه غرفة صغيرة، يقول: "قلت له مرة: لى القابلية أن أحفظ بسهولة مائة كلمة إنكليزية كل يوم، ردّ علىّ باستغراب مهذب: كل يوم؟ بسهولة؟ طعنني وحق الكعبة.يُكذبني وجهاً لوجه تغيرت سحنتى، وظهرت روحيتى العراقية المجبولة على المبارزة، قلت له: هل تشك فى قابليتى؟! اعتذر أشد اعتذار، اعتذار طفل اقترف ذنبا لم يكن يقصده قال لى "وقع الجملة وسكت"(١)، لذا نستطيع أن نقول إنهم يحملون لغة العقل والمنطق، ونحمل صفة الصلف والغرور التى تدعونا إلى المبارزة عن جهل فى بعض الأحيان.

يفتت الغرور شخصية الإنسان إلى شطرين، أى تكون الشخصية ازدواجية، يقول الكائن السيرى: "كنت أسير فى الشوارع مخذولا، وصداعى لا يحتمل، خدعتنى سذاجتى. شخصيتى مزدوجة، بينى وبين نفسى، أنا إنسان هش، وبينى وبين الناس، أنا الفارس المغوار، هل من مبارز؟ كان على أمهاتنا . وهن أصل الداء . أن يزقفنا التواضع مع الحليب. كان على حكوماتنا أن تفتح عيادات للمغرورين، وأن تفرض ضريبة على كل كلمة مغرورة يكتبها أديب. لماذا لا نجعل الغرور جناية فعلا؟ لماذا لا نجعل التواضع ركنا من أركان الدين؟ لو سردت لى

(١) السيرة ص٦٦ .

مائة سبب لتخلف الشخصية العراقية، أو لتدهور الأوضاع السياسية فى العراق، لقلت الغرور على رأسها وأخطرها جميعا"(١)

كان لابد لنيازى من صدمة لا تقل قوة عن الصدمات الكهربائية التى ينتفض الإنسان من قوتها، الصدمة تمثلت فى تعرفه على موظف عالى المنصب فى شركة "شل" وفى نفس الوقت طالب دكتوراه فى كلية الدراسات الشرقية والإفريقية التابعة لجامعة لندن(*)

"منذ البداية عيّن ما نوع المساعدة التى ينبغى علىّ أن أقدمها له. مراجعة نصوص عربية شعرية قديمة. قال سيدفع جنيهين فى الساعة. وهذه الساعة يجب أن تكون فى الرابعة عصرا من كل يوم خميس، ولمدة شهرين... كانت المقطوعات الشعرية أمامه ونسخة منها أمامى. أوراق وعدة أقلام. أستأذننى بتسجيل الدرس. بدأنا الدرس بقصيدة لدعبل... قرأتها بإلقاء لا يخلو من تكلف... حين مررت بكلمة ببلقعة. أعرف أنها مكان ولكن ما نوع المكان؟ وحين وصلت إلى كلمة "حسيرا" ارتجف صوتى فعلا... ثم ما القرى بالضبط، هل هو مجرد طعام، أم أنه طعام خاص؟ وما معنى "تسفى"؟ وما معنى "لا هبوب به" ؟ هل الإنسان يهب؟ لا ريب أننا نرث هذه الكلمات ونتداولها، ولكننا لم نربّ على التدقيق فيها... قال تلميذى ذو المنصب الكبير: لأدقق معك معانى الكلمات. وأخرج ورقة: الثاوى: المقيم، البلقعة: المكان الخالى، تسفى الرياح: تطيّر التراب، الهبوب: الانتباه والحركة من النوم، حسيرا: ضعيفا، القرى: طعام الضيف... سألنى بعد ذلك أسئلة لم تكن لتخطر على بالى. كنت أمر بامتحان حسير... ثم قرأنا قطعة ثانية وثالثة وانتهت الساعة... كان إحراجى واضحا، ولولا تعللى بضعف لغتى الإنكليزية (وضعف لغته العربية) لصرفنى عن تدريسه... شعرت

(١) السيرة ص٨٣، ٨٤
(*) راجع السيرة ص٩٢

بالفشل يخنقنى، فرُحت أصغر. هل كنت أجتر الأدب العربى دون أن أهضمه؟.... قام إلى البيانو وعزف موتسارت أولا، ثم بيتهوفن. التفت إلىّ وقال: التشابه واضح. أليس كذلك؟.. لم أشعر بخجل من جهلى بقدر ما شعرت بوخز وخيبة ورثاء لنفسى. هكذا كان الإحباط يطبق علىّ. معرفتى بالأدب العربى سطحية تلقينية، وها أن معرفتى بالموسيقى الغربية ضحلة محزنة... شعرت خلال الشهرين مع تلميذى بضآلة معلوماتى حقيقة. شعرت أنى أجوف مصنوع من ضوضاءات منوعة. إنسان هامشى فعلا لا أتقن شيئا"[١]

كان درسا قاسيا "لنيازى"، الذى شرب الغرور مثله مثل أترابه من أبناء العراق، شعر من خلاله أنه سطحى وساذج، بل شعر بالخجل من شدة جهله، لأنه تعلم بطريقة تلقينية تخلو من التدقيق والتمعن، وقوة الإرادة، شعر بمدى ضعفه فى الأدب العربى، وعدم إلمامه بالموسيقى والفن، بل كان جهله بهما يدعو إلى الشفقة به. الدرس الثانى تمثل فى حديث أستاذه المشرف على أطروحته العلمية، يقول عنه: "قال لى أستاذى المشرف على أطروحتى بثقة طبيب وكأنه يعالجنى من مرض: إنك تكثر من ال "أنا" وهذا لا يجوز فى الأطروحات الأكاديمية، ولم يكمل الفصل. كانت تلك الوصفة الطبية ناجعة فعلا، أولا لأن ال "أنا" قرنت بمرض، وثانيا لأن الأطروحة لن تقبل بوجود هذه العاهة"[٢] نعم إنه مرض خطير؛ إلا أنه كان يحاول التخلص منه فى غير يقين؛ لأنه يعلم مدى خطورة تمكنه من الإنسان، يقول: "قلت لن أتحدث عن نفسى من الآن فصاعدا. عفوا سأحاول"[٣]

من خلال هذه الصدمات المؤثرة قرر "نيازى" أن يتخلص من العادات المرضية المشينة التى تظللها غشاوة الكبرياء، يقول: "قررت دون سابق إنذار

(١) السيرة، ص٩٢ ـ ١٠١ .
(٢) السيرة ص١٧٦
(٣) السيرة ص١٧٦

وقبل الكد فى إيجاد العلاج أن أستأصل وكأن بالكى بعض العادات المرضية البشعة: كالاعتداد بالنفس والحديث عنها، والشكوى، ومنابزة الآخرين بمطامحى.هنا قوم، لا يفرقون بين الاعتداد بالنفس والعجرفة. وتواطنوا على أن الحديث عن النفس، شئ شخصى لا يحسن التحدث به للآخرين... الإقلاع عن هذه العادات المشينة صعب، كصعوبة استبدال المشى على الكفين بدل القدمين، نشأت عليها، منذ وعت أذنى صوت والدتى"(١)

ما زالت تؤرق "نيازى" مسألة الفرق الشاسع ما بين الشرق والغرب، مما يضطره أن يستعين بطالب الدكتوراه الذى يدرس معه الشعر العربى، ليسأله عن عيوبه التى سيصل من خلالها إلى عيوب كل عراقى، بل كل عربى يقول: "كم كان بودى أن أسأله عن عيوبى. عيوب، يا لله، يمكنك أن تقول اختلاف البيئتين. أنت منحدر من بيئة، وأنا منحدر من بيئة أخرى. هذا كل ما فى الأمر. لقد نشأنا منذ عصر النهضة على التدوين. أصبحت عقولنا تدوينية. جاءت الثورة الصناعية إلى بريطانيا فى القرن التاسع عشر، فترسخ التدوين أكثر. هل تعنى أن عقلياتنا شفهية؟ يمكن القول أنها غير تدوينية، كما يجب. شهدت الفترة العباسية أكبر العقول التدوينية فى تاريخ حكم العربى، لا أعنى بالتدوين الكتابة طبعا. لكنها لم تستمر للأسف نتيجة الحروب والاضطرابات الداخلية"(٢)

من أين يتأتى ذلك "فالمدرسة العراقية تحشو رؤوس الطلاب، بما تفرضه من أشعار حماسية بطولية، بقيم يقاس فيها الإنسان بحجمه الفيزيائى، الضخامة مثال أعلى، العضلة آلة تدمير وهيمنة، الشاربان الكثان رجولة، وشعر الصدر فحولة، تنعكس هذه القيم الصحراوية العضلية، فى طريقة تعبيرنا منذ الطفولة، ولأنها تنمو

(١) السيرة ص٦٧، ٦٨
(٢) السيرة ص١٠٤

شيئا فشيئا، لا نشعر ببشاعتها، بل نتلذذ بها، ونتفنن فى سبكها بأسلوب فخم شعرا ونثرا. معظم شعرنا، معظم نثرنا يجب أن يدخل إلى مستشفى الأمراض النفسية"(١)

كان لابد "لنيازى" أن يقوم بعملية تغيير جذرى لثقافته التلقينية، ليتحول إلى ثقافة التدوين والتفكر والتمعن، ينتقل إلى مرحلة أدبية جديدة تؤتى ثمارها، ويكون لها أثرها فى النتاج الأدبى الذى سيبدعه، لابد أن ينتقل من طور المشافهة والتلقين، إلى طور التدوين.

لقد كان للفتاة الإنجليزية زميلته التى كانت معه فى المكتب الأثر الأكبر فى هذا التحول الثقافى، فقد تحدث إليها "مرة، وقد أشبعها مشاريع ومطامح، قالت بخفوت من بين شفتيها الطريتين:

"ASUSUAL, SETTING THE THAMESON FIRE"

لم أسمع بهذا القول، فابتسمت وكأننى فهمت ما الذى تعنيه... لم أحاول أن أعرف ما قالت فى الحال... عرفت، بعد حوالى سنتين، وأنا أسترجع تلك الفتاة فى ذاكرتى، أنها لدغتنى لدغة مهذبة، كلدغة القطرة فى العين.

هل كنت فعلا. كما قالت الفتاة الإنكليزية ساخرة، أجترح المعجزات وآتى بالمستحيل؟ لماذا كل هذا التشبع بالذات؟ من المسؤول عن خرابى النفسى؟"(٢)

أسئلة يطرحها على نفسه، وفى داخله اعتراف بما جنته عليه البيئة من سلبيات، تلك البيئة التى يقول عنها: "حقا لقد جئت من بيئة يقشعر فيها وجه شاعرها الأكبر إذا ما ذكر بوشكين أو بودلير أو شكسبير، ولو عابرا، فى مجلس

(١) السيرة ص٦٨
(٢) السيرة ص١٦٩

يضمه"[١] يؤكد أنه ضحية المجتمع، بل يقول فى مكان آخر: "أنا ضحية العقلية الشفاهية السائدة بالعراق"[٢]

يعد ما قام به "نيازى" تطورا جديدا، حيث اعترف بما جنته عليه البيئة والثقافة العراقية من أمراض، ونراه قد دخل طورا ثقافية جديدا، حيث مرحلة الاعترافات التى قلما تجد كاتبا أو أديبا يتمتع بهذه الصفة، ما دفعه إلى ذلك، إلا دخوله فى مرحلة التدوين والتدقيق، وخروجه من بوتقة التلقين والمشافهة، بدأ التعامل مع عمق الجملة والجملة، وما ورائهما دون الاعتداد الكامل بسطحيتها، فها هو يعترف بعيوبه، والتى من أهمها أنه صاحب شخصية مزدوجة.

يقول الكائن السيرى: "اكتفيت بما أقنعت نفسى به، من أننى ضحية بيئة أورثتنى العصاب والرهاب وشتى الأمراض النفسية، وها أننى اليوم بلندن أعيش دورة نقاهة مهما بلغت من سنين"[٣]

ويؤكد فى موضع آخر على ازدواج شخصيته، يقول: "لم تكن لى أية رغبة فى النشر، وفى نفس الوقت تهالكت على النشر، لإثبات وجود فقط... أحب الشهرة، وفى نفس الوقت أخشى أن يومئ إلىّ الناس"[٤]

ومن اعترافاته أيضا، يقول: "لأعترف أننى لست مترجما... لأعترف أكثر أننى لست موهوبا بهذا الفن الصعب. ليست لى قابلية على تقمص روح الكاتب الأصلى بلغته الأم، لأعيدها حية فى لغتى الأم"[٥]

(١) السيرة ص١٦٩، ١٧٠
(٢) السيرة ص٨٥
(٣) السيرة ص١٦٥
(٤) السيرة ص١٦٦
(٥) السيرة ص١٧٩

ومن اعترافاته أيضا، قوله: "هل كنت أخدع نفسى، حينما تمنيت أن أموت بعيدا، فى خارج بلدى؟ ما الذى حبب لى الحياة العقيمة؟ نقمت على ضعفى، ولكن من أين المهرب"(١)

لقد أتت دار النقاهة ثمارها، حيث التغيير الجذرى فى فكر وثقافة نيازى، يتضح ذلك من خلال تمنياته التى ذكرها لنا فى ثنايا سيرته، يقول: "ليت التواضع يكون مادة تدريسية أساسية، ليت عبارات مثل "لا أدرى" و"الله أعلم" و"قد أكون مخطئا" تعمم وتنشر بين الناس... ليت لنا حزبا يبدأ من عيادة نفسية صغيرة وبشعار واحد "مكافحة الغرور""(٢)

هذا من ناحية الغرور القاتل الذى دمر شعوبا لم تلق له بالا، أما من الناحية الثقافية والفكرية، فقد كان الأثر الأكبر فى التغيير لزميلته الإنكليزية التى كانت معه فى المكتب، والتى تحدثنا عنها سابقا، حيث يقول: "كانت لدغة زميلتى الإنكليزية حادة كسكين مسنونة لا تحس بجرحها فورا ولا ينزف معها دمك فورا... منذ أن تبينت معنى ذلك التعبير الإنكليزى، استجدّت لدى عادة أرهقتنى وسببت لى عزلة نفسية من نوع خاص. كنت كلما التقيت بزملائى، أتعقب ما يقولون بدقة، تحليلا ومقارنة امتدت هذه العادة، إلى ما كنت أقرأ نثرا أم شعرا"(٣)

والآن نتطرق إلى بعض الأحداث المتفرقة فى السيرة، والتى يعتمد فيها الكاتب على المنهج المقارن بين أحداث متشابهة، حدثت فى العراق، وفى لندن من الأحداث التى تحتوى على المفارقات، وتؤكد على مدى القسوة التى يتمتع بها الشعب العراقى، الذى يحمل لكثير من العلل والأمراض النفسية، التى تحتاج فى كثير من الأحيان لطبيب نفسى يعالجها، الطبيب النفسى كما أتصور فى هذه

(١) السيرة ص٨٠
(٢) السيرة ص١٧٤
(٣) السيرة ص١٧٤

السيرة، هو "نيازى" نفسه، يحكى لنا عن تجربة حياتية شديدة القسوة أثرت فى نفسه وكان ما يزال صبيا، فإذا كانت الأم العراقية ترضع أولادها الغرور مع لبنها، فإن المشاهدة جزء هام من تكوين الشخصية، ففى سرده لحياته البسيطة حيث يسكن فى بيت فيه الكثير من الحيوانات والطيور، يوجد "فى البيت قطة. قفزت مرة، فقلبت الفانوسى النفطى، فكاد البيت يحترق (منذ ذلك اليوم وأنا أحذر من القطط) مع القطة لدينا كلبة سوداء ودود، ألفناها حتى صارت فردا منّا. أعطتنى أنا بالذات، الحماية والأمان. من سوء الطالع أنها تكره المسبحات إذا كانت سوداء، فما أن يمر رجل وبيده مسبحة سوداء حتى تنطلق، تقطعها وهى تنبح، وكأنها تشتم صاحبها، اشتكى بعض رجال الدين منها.. بعد حوالى ثلاث سنين، أصيبت بداء الكلب، هكذا قيل. تبرع أحد الجيران بقتلها. كانت فرصة أخرى لأن يستعرض عضلاته أمام فتيات الحارة. ضربها على رأسها بلوح حديدى ثقيل. نطت ولم تصدق ما حدث. المفاجأة أكبر من الألم... ضربها ثانية، فاندلق دمها من فمها، شرقت، رفست، شهقت، ارتجفت أطرافها وبقيت عيناها نصف مفتوحتين، كأنها تتوسل، كأنها تتوسل، كأنها تستنجد، جُرّت من ذنبها بعيدا. يومها ثُلمت الحياة. بقيت مكسورة لحد الآن"(١)

مع شدة قسوة المشهد، إلا أننى سعيد بفنية السارد، وانتقائه لعباراته، وصوره الخلابة التى لا تتيح لك فرصة للشرود بعيدا عنها، فبراعة التصوير تتفق وجسامة الحدث الذى احتوى على كثير من الأمراض لدى العراقيين، والتى يجب أن تداوى، نعم كثير من الشباب يصاب بالزهو وإبراز العضلات أمام الفتيات حتى لو كان الأمر اقتراف ذنب، نعم هناك قلوب أصابها الران فصارت غليظة فظة لدرجة أن تضرب حيوان ضعيف بلوح حديدى، حتى أن الفاعل أصاب الناس بالدهشة لعظم وهول المفاجأة والمصيبة، انظر إلى مشهد دوران المقتول حول نفسه عدة

(١) السيرة ص١٧، ١٨

مرات عاجزا عن الدفاع عن نفسه، لدرجة أنها تحاول عض ذنبها، تواصل العياط ولا رحمة، يندلق الدم من فمها ولا رحمة. براعة الوصف مع الصورة فى محاولتها التنفس، أتى الجناس ليؤدى دوره فى توصيل المشهد إلى القارئ فى الكلمات التالية (شرقت . رفست . شهقت) وكلها ألفاظ تدل على مدى شدة الضربة، وشدة الألم فى نفس الوقت، وما أروع التنوع فى جمل طلب النجدة، حيث تتوسل مرة، وتستنجد مرة، ولا يشعر بذلك إلا أصحاب القلوب الرطبة، (كأنها تتوسل – كأنها تتوسل– كأنها تستنجد)، التكرار والتنوع لهذه الوسائل، إنما هو أثر من آثار الآلام التى لحقت بالكاتب ساعة المشاهدة، لدرجة أنه بقى مكسور حتى الآن من شدة المنظر.

فى المقابل يحدثنا "نيازى" عن حادثة شبيهة شاهدها فى بريطانيا، حيث يقول: "سكرتيرته الإنكليزية، أهدت لى كلبة سوداء من نوع كلبتى الأولى عاشت معنا خمسة عشر عاما، بعد ذلك أصيبت بالعمى والصمم والشلل.

كان لابد مما ليس منه بد. حملتها إلى الطبيب، فاختار لها الموت شفقة ورحمة، تورمت حنجرتى، وتنمل رأسى، شرح الطبيب لى مراسم الموت ومساحة القبر، ونوع الآجر، وشاهدة القبر (رثيتها فى قصيدة "رثاء فى لولو" عام ١٩٩٨م)"(١)

للقارئ أن يفرّق بين الموقفين، فكأنك تشاهد العراقى وما زال يعيش فى الجاهلية الأولى، بل الجاهلية ما زالت تعشش فى العراق حتى الآن كما يرى الكاتب فى موقف آخر يحدثنا عن شخصية عراقية التقاها فى لندن، تحدثت إليه هذه الشخصية قائلة: "أستاذ صلاح، أستاذ صلاح. أنا تلميذك فى المدرسة "الجعفرية" هل نسيتنى؟.. أستاذ يبدو عليك التعب، أستاذ هل تحتاج إلى خدمة؟... دخل علىّ ابن الحلال هذا نفسه مرة إلى غرفة المعلمين، وفى يده

(١) السيرة، صـ١٨

رشاشة حقيقية، محشوة بإطلاقات نار حية. صلاح (بلا أستاذ)، هل صلحت دفتر امتحانى؟ درجتى لا تقل عن تسعين من مائة. فهمت؟ أحذرك، قبل أن يخرج، التفت إلىَّ مؤشرا بأصبع واحدة ونظرة مفترسة صلبة: أحذرك"(١)

هذه شخصية عراقية تعيش فى لندن، إلا أنها لم تستطع أن تغير أفكارها، حيث الصلف والغرور والتكبر والاستعلاء، كلها صفات تمكنت من العقلية العراقية والتخلص منها يحتاج إلى وقت كبير، يشخص لنا الكائن السردى مشاكل اجتماعية متعددة، جذورها متعمقة فى الأرض، منها كما ذكرنا الغرور، والأنا، والاعتداد بالنفس، أمراض اجتماعية تحتاج إلى علاج قاسى، لأن هذه الأمراض توارثها الناس أجيالا بعد أجيال.

الموقف الأهم، هو الذى تعرض له مع الشرطى البريطانى، والذى أستوقفه، ثم سأله: "ما اسمك، ما عملك؟ أين تسكن؟ أريد أن أفتش حقيبتك. قلت: ليس فى حقيبتى شئ سوى بعض الكتب والأوراق، والكلمات الإنكليزية الصعبة التى حاولت أن أتعلمها هذا اليوم. أين تدرس؟ كم سنة مضت عليك فى هذا البلد؟ قلت لم يفتش أحد من قبل حقيبتى، لماذا تصر على تفتيشها؟ قال لأن الوقت الآن هو منتصف الليل، وفى هذه الحالة يجيز لنا القانون تفتيش الحقائب. نظرت إلى ساعتى بهدوء أعصاب وقلت: لم يحن الوقت، إنها الثانية عشرة إلا خمس دقائق. قال: متأسف واختفى... وقبل أن أدخل إلى ديسكو صاخب. سمعت صوتا قريبا الآن، من فضلك. الشرطى نفسه، قال: الساعة الآن الثانية عشرة والنصف ولى الحق باسم القانون أن أفتش حقيبتك. أمرنا إلى الله إذن، نظر بمحتوياتها وقال شكرا. وقبل أن يهم بالذهاب قال انقطعت المواصلات العمومية الآن، ويمكننا أن نوصلك بإحدى سياراتنا مجانا. شكرته طبعا. إذن لست مهملا مائة بالمائة"(٢)

(١) السيرة، ص٥٣، ٥٤
(٢) السيرة، ص٧٥، ٧٦

الرسالة الهامة التى تحملها هذه الحادثة هى (احترام القانون)، فلن يتحقق عدل دون قانون، ولا آدمية لإنسان دون قانون، ولا قضاء على ديكتاتورية دون قانون، ولا تخلى عن عادات وقيم وتقاليد بالية إلا بالقانون، فها هو يشعر بآدميته من خلال النقاش الذى يحميه القانون، وهو يشعر أيضا بأنه غير مهمل، شعر بوجوده الآن، أحس بكرامته، وهى أشياء كانت سببا هاما من أسباب هروبه من العراق. شتان بين الشرق والغرب، حقا إن أحداث رواية نيازى تدمى القلوب؛ لأنها تصور الفرق الكبير بين الشرق الذى ظل يتغنى بحضاراته القديمة، والذى وقف دون السعى نحو التقدم، الشرق الذى سيطرت عليه الأنا، الشرق الذى يحتاج إلى مستشفيات نفسية تعالج ما رسخ فى العقول من أمراض اجتماعية خطيرة.

ينتقل بنا "صلاح نيازى" تجاه قضية أخرى يوضح من خلالها مدى التباين فى الرؤية والتحليل للأشياء بين العراقيين وبين البريطانيين، يوضح كيف نسطح الأمور؟ وكيف ينظرون نحو العمق؟ نحن نهتم بالقشور، وهم يهتمون بالجذور، وهذا فرق شاسع وكبير، يقول: "نحن نتحدث عن الغابة والبستان، وهم يفحصون كل نبتة على حدة، طولها، عرضها، خلاياها، أنساغها، لحاءها، استنباتها، تطويرها، أفضل بيئة لها. نحن نتحدث عن الصحراء، وهم يضعون قبضة من رملها تحت المجهر... نحن نتحدث عن البحار ونتلذذ بأشرعتنا الضائعة استدرارا للعطف، وهم يصنعون البوصلة ويرسمون جغرافية البحر"(١)

فرق شاسع بين من ينظر إلى الأمور نظرة تدقيق وإمعان، وبين من يأخذ الأمور على ظاهرها، علما بأن العرب فى العصر العباسى الأول كما يشير إلى ذلك "نيازى" هم أول من دشن فى تاريخ العرب التدقيق فى التفاصيل، لكنه يعترف فى نهاية الأمر "أنا ضحية العقلية الشفاهية السائدة بالعراق"(٢)

(١) السيرة ص٨٥
(٢) السيرة ص٨٥

البون شاسع بين عقلية تدوينية تهتم ببواطن الأمور، وعقلية شفاهية ديدنها سطحية الأمور وتسطيحها.

المواقف والأحداث التى ذكرناها، وهى تجارب حقيقية لدى الكاتب، جعلته يصل إلى الدرجة التى قال فيها: "باختصار، لم تعد الشعارات الثورية، تلهب فى دمى النار، وأصبحت فلسفة "التغيير من الجذور" تفزعنى"(١)

هذه قناعته التى وصل إليها "التغيير من الجذور"، إلا أنه يؤمن أيضا، أن هذا التغيير يحتاج إلى وقت طويل، يقول: "لا يمكن للحضارة أن تبدأ بين عشية وضحاها. إنها كالبذور لابد لها من نمو بطئ. قد تعجل فى خلق مجتمع متعلم، ولكن من الصعوبة خلق مجتمع متحضر، فى فترة زمنية محدودة"(٢)

بعد كل هذا يفاجأنا الكائن السردى باكتشافه للشخصية العراقية، حيث رأى أن "خرابنا فى داخلنا وهذه أتعس طامة، أصبحنا كالخشب المأروض. لأكن مريضى وطبيبى، رأسى عيادتى، لأتعرف علىّ أولا، وعلى جذورى الخفية"(٣)

الأسئلة التى تطرح نفسها الآن، ما هى رؤيته تجاه التعرف على نفسه وعلى جذوره؟ أجابنا السارد، قائلا: "اندفعت وكأن بقوة غيبية إلى دراسة السومريين... المسألة ببساطة، أننى فكرت بجدية، أن مشاكل العراق لا يمكن أن تفهم ما لم يفهم ماضيه، لابد من وجود صلة أو صلات، ربما أن العراق: شطر صحراء، وشطر نهر، إذن لابد لى من دراسة أدب الرمال، وأدب الماء والطين المفخور. لكنى شعرت من قبل بغربة فى الصحراء... مرة أخرى أجد نفسى أهرف وأهذى... لم يكن همى إيجاد الصلة أو الصلات بين ماضى العراق وحاضره. لست مصلحا، ولا رائداً ولا قائداً. ما جرنى إلى قراءة السومريين، لا علاقة له بأحد

(١) السيرة ص١٦٣
(٢) السيرة ص١٦٣
(٣) السيرة، ص١٨٨

غيرى كنت أتشبث بالحياة بعنف على عكس ما أتظاهر به. وخشية انهيارى أمام الأبناء المفزعة الهابة من العراق، أردت أن أشغل نفسى عنها"(١)

يحاول الكائن السردى إيجاد حل للمشاكل العراقية، فظن أن الحل فى دراسة الحضارة السومرية، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى يكتشف أنه يهذى، وحتى يحمى نفسه من الانهيار لجأ إلى عاديات السومريين يختبأ فيها، "وحتى أضفى على نزعتى الجديدة مبررا منطقيا، رحت أتساءل ماذا يعنى أن تبنى حضارة وتندثر.. أن تصوغ لغة يتحدث بها مئات مئات الآلاف من الناس وتندثر"(٢)

فالكاتب هنا لم يكن هدفه التفتيش عن جذوره، بقدر ما كان يرغب فى ملء فراغ يشعر به، يقول: "كنت طيلة حياتى، كغصن مطعم فى شجرة غريبة. هل يمكن لذلك الغصن أن يعود إلى جذوره السومرية الأصلية؟

ما الفائدة؟ فى الواقع لم أكن أفتش عن جذورى الأصلية بقدر ما كنت أملأ فراغا. حقا كنت أشعر بغربة حتى فى أكثر الأجواء حميمية. من يصدّق أننى كنت غريبا حتى عن والدى وإخوتى. أتلذذ بعاطفة أمى. وأشعر بغربة، أتمتع بصحبة أصدقائى وأشعر بغربة، أحب الناصرية وأشعر بغربة، وببغداد كانت الغربة جارحة"(٣)

مازالت الحيرة تسيطر على الكاتب، حتى أنه يعجز عن سبب غربته النفسية التى يعيشها منذ الطفولة، وظلت ملازمة له حتى الآن، "أردت أن أعرف سبب هذه الغربة الغامضة، فلم أفلح. كلما فكرت بها ازددت غموضا. لماذا حزنى منذ الصغر أكبر من كل بيت، وأطول من كل شارع؟"(٤)

(١) السيرة ص١٨٨، ١٨٩
(٢) السيرة، ص١٨٩
(٣) السيرة، ص١٨٩
(٤) السيرة ص١٩٠

تظل الأسئلة حائرة وكأنها أقراص وضعت فى الماء لتتفتت إلى جزئيات، هكذا يوّد الشاعر إجابة تُريحه من حيرته الملازمة له، إلا أنه لا زال يسأل، يقول: "هل لابد للغصن المطعم فى شجرة غريبة من عودة إلى جذوره الأصلية؟"(١)

ولكن وآسفاه، يزور الكاتب العراق بعد غربة عشرين سنة، فلم يعد بفكر جديد عنها، وإنما يعبر عن ذلك بقوله: "إذا كان ثمة معنى لتعبير "خالى الوفاض"، فإنى عدت من بغداد خالى الوفاض تماما مثلما غادرتها لأول مرة قبل عشرين عاما مخذولا مكسورا... منذ مئات السنين، لم يتغير شئ فى سومر. نفس الوجوه المتأزمة، نفس الأحاديث الشاتمة والعنجهية، نفس الغرور المزهو بذاته"(٢)

حوصر الكاتب بالأسئلة، كما حوصر بالأمراض النفسية التى حلت ببلاده، مما اضطره إلى أن يقول: "شربت أقراص فقدان الذاكرة، فاختلت حياتى. لا يمكن للإنسان أن يعيش بلا ماض. الشجرة لا تعيش الفصول بلا جذور. لكننى انقطعت عن الماضى، وأعيش كيفما اتفق. لا يهمنى أبدا حلم كلكامش بالخلود، ما يعنينى الآن من كل لغات العالم وقواميسها كلمة واحدة أو كلمتان: شفى العراق.. كل مذهب، كل فلسفة، كل شعر، كل سياسة لا أجد فيها ذلك الشفاء باطلة... ما من شفاء ولكن لابد من هوية ولو كان آجرة سومرية فى صندوق زجاجى فى متحف"(٣)

أطبق اليأس على الكاتب من كل الجهات، حتى وصل لدرجة فقدان الأمل فى شفاء العراق، الذى ما زال أهله يتغنون بالصلف والغرور والأنا، أهله الذين مازالوا متمسكين بهويتهم دون تطور أو تقدم، وكأنهم يرغبون فى حياة العصور

(١) السيرة صـ١٩٠
(٢) السيرة، ص١٩٥
(٣) السيرة ص١٤٠

الوسطى، فلا زالوا يغوصون فى بحار الحسب، والنسب، والأصل، والفرع، والحضارة القديمة، وغير ذلك من الأمور التى تعيق التقدم والتطور.

يلخص لنا الكاتب سيرته، فيقول: "لم أكن أمثل مراحل حياتى كنت أعيشها متداخلة، بوتقة خليط وكأنها عنصر واحد، رغم تعدد عناصرها، وزمن واحد، رغم تعدد أزمانها، ما وقع لى فى طفولتى، لم ينقطع. نما وتفاعل وتداخل. بدأ ولم ينته. بوتقة خليط، ربما لهذا السبب، استغنيت عن التواريخ فى هذه السيرة لأنها تاريخ واحد متواصل لا يمكن تجزئته إلا مجازا"(١)

وأخيرا يصل إلى ما يتيقن أنه الصحيح من وجهة نظره فى هذه الحياة، يقول: "الشئ اليقين فى حياتى الآن هو الحيرة. الحيرة حتى من قابليتى على الكتابة. الحيرة رافقتنى مع أول كتاب مدرسى. الحيرة ميراثى الأول والأخير"(٢)

ثم يقارن بين ما ينشده هو، وما بحث عنه "كلكامش"، حيث يقول: "فتش كلكامش عن الخلود، فأصابنا بعدواه. فى الواقع لا أفتش عن الخلود، وإن كنت أعشقه. فتشت فى البداية عن لقمة العيش وكأنها الأكسير، واليوم أفتش عما ينسينى حيرتى التى تزداد وتستفحل بمرور السنين، سأخرج من حلبة الحياة بحيرة أكبر. الحيرة ميراثى الأول والأخير، فأتخبط:

فى كل آلة موسيقية، آلاف الأنغام لم تكتشف بعد

فى كل شجرة، أصباغ بقدر عيدان الأعشاش

فى كل صخرة، عدد لا حصر له من تماثيل لم تُنحت بعد

يولد الإنسان وفى صدره مدن مطمورة

فى حنجرته لغات مدحورة. لغات منقرضة

لغات فى تابوت. لغات فى زفاف

(١) السيرة ص٢٠٤، ٢٠٥
(٢) السيرة ص٢٠٥

ملامحه ليست ملامحه

ويداه مجدافا نوح دائما

هل نحن الحقيقة أم الصورة؟ أم صورة الصورة إلى ما لا نهاية

هل نحن أشجار مطعمة فى أشجار غريبة؟"[1]

لا زالت الحيرة تسيطر على الكائن السردى، بل ستظل ميراثه الأول والأخير كما ذكر، لأنه لم يصل إلى إجابة قاطعة لما طرح من أسئلة، لكنه أجاب عن البعض، وترك البعض للقراء يصولون ويجولون حوله مشاركين إياه فى الحصول على إجابة شافية لهذه الأسئلة، إجابة كما تمناها هو، ملخصها "شفى العراق"، ونراه ينهى سيرته بأبيات شعرية، نظرا لما تحمل من أسرار ومعان كما ذكرنا فى الصفحات السابقة، فلا ضير من اتحاد النثر مع الشعر للوصول إلى الغايات.

تعلق إحدى الكاتبات على نهاية سيرة "نيازى"، فتقول: "هكذا ينهى صلاح نيازى واحدة من أجمل السير الذاتية المكتوبة بالعربية على الإطلاق، سيرة تبدأ بأغنية للخلود، وتنتهى بخلود للأغنية، وما بين البداية البعيدة والنهاية المستشرفة يبدو الشاعر العراقى المغترب فى لندن منذ أكثر من أربعين عاما مثل "غصن مطعم بشجرة غريبة" ينمو بمحض إرادته ليكتشف خطاه فى الأرض التى ظلت أرضا بكرا بالنسبة إليه دائما... فى سيرته الذاتية التى صدرت قبل عامين تقريبا تتوزع خطى الشاعر على خريطة المدن التى تناهبته لافتاتها ابتداء من الناصرية، حيث ولد، وانتهاء بلندن، حيث انتهى به المطاف حتى الآن، مرورا ببغداد وحلب وتركيا وميلان"[2]

(١) السيرة، ص٢٠٥، ٢٠٦ .
(٢) سعدية مفرح، همزة وصل، غصن مطعم بشجرة غريبة، جريدة الرياض عدد ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٤م

الأشخاص:

لم يرد فى سيرة "نيازى" ذكر لأسماء شخوص إلا نادرا، وذلك نظرا للظروف التى مر بها أهل العلم والثقافة والأدب فى تلك الفترة، حيث قلت نوعا ما المؤثرات، والتأثيرات فى المجتمع العراقى.

تعد شخصية "صلاح نيازى" الشخصية الرئيسية التى تعمل جميع الشخصيات على إظهار ملامحها، والقيام بخدمتها، لذا تقوم الشخصية الرئيسية بدور المستمع الذى يستفيد من تجارب الآخرين، وتقوم الشخصيات المختلفة بدورها المؤثر فى الشخصية الرئيسية، وفى هذه الحالة يكون "أهم ما يلحظه الكاتب فى السيرة، النمو والتطور والتغير فى الشخصية مع مراحل التقدم فى السن، لذلك كان من المحتوم عليه أن يتابع التدرج التاريخى، وأن يلحظ بدقة تأثير الأحداث فى الخارج والداخل على نفس صاحبها"(١)

هناك بعض الشخصيات الهامة والمؤثرة فى شخصية "نيازى"، من المفروض أن يكون الوالدان هما أول مرحلة من مراحل التأثير فى حياة الإنسان، إلا أن "نيازى" لا يعرف الكثير عن والده بالذات، حيث يقول: "كان عمرى حوالى سنتين... حيث كان والدى ضابطا فى الجيش، غابت الذاكرة بعد ذلك، وعادت على مشهد والدى على فراش أبيض فى غرفة بمفرده. ربت على رأسى وقبلنى، ثم مشهد والدتى جالسة في طارمة مفتوحة.. ثم تغيب الذاكرة نهائيا. هل مات؟ أين دفن؟"(٢)

(١) إحسان عباس ، فن السيرة ، دار صادر بيروت، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٦م، صـ٧٧
(٢) السيرة ص٧

واضح أنه لم يسعد بعناية والده له؛ لأنه فارق الحياة وهو فى سن صغيرة.

يبدو أن الشخصيات العراقية لم تكن ذات أثر كبير على شخصية "نيازى"، وإن ما ذكر لنا من أسماء لا يجاوز عملية وصف لهذه الشخصيات، وصف يشير من خلاله إلى أنه معجب دونما تأثير مباشر، فعندما يحدثنا عن مدينة "الناصرية"، وعن الحركة الأدبية فيها، يذكر أن "فى المدينة ثلاثة شعراء، على رأسهم رشيد مجيد. وهو شخصية غريبة. مصور فوتوغرافى. لم يكمل دراسته.. لا يعرف الأوزان الشعرية تقطيعا، ولكنه لا يخطئ فى الوزن، أميل إلى الطول، ممتلئ الجسم، سريع المشى.. كنّا نهابه، شاعر موهوب فعلا فى بيئة غير موهوبة. قصائده الأولى مصنوعة من نيران واقتحام وكلمات شرر. مع ذلك لم يكن يحسن الكلام عن الشعر، إنما يقتصر قوله على: قصيدة جيدة أو قصيدة غير جيدة"(١)

واضح أنه يتناول الشخصية بالوصف، الذى يتناول من خلاله الحالة الأدبية، وكيفية الحكم على العمل الأدبى، وربما يكون هذا قد أثر على شخصيته عن طريق الإعجاب

يتحدث أيضا عن شاعر آخر، "شاعر كردى غادر إلى بغداد اسمه عبدالقادر رشيد الناصرى. ما تزال أبناؤه طرية فى المجالس الأدبية، أصبح مشهورا ببغداد، وكان ينشر فى مجلة "الرسالة" القاهرية"(٢)

مازال يتحدث عن ممثلى الحركة الأدبية فى الفترة الزمنية التى عاشها فى العراق

فيذكر لنا "شاعرا رقيقا لدرجة الذوبان وإنسانيا لدرجة نكران ذاته. اسمه فاضل السيد مهدى.لم يكمل الدراسة وكان بقالا... شيوعى متكتم لا يبشّر بفكره.

(١) السيرة ص١٣
(٢) السيرة، ص١٤

انفعاله الشديد يفسد عليه التحكم ببناء القصيدة العمودية، يقرأها علينا والدموع تملأ عينيه،ولكن ما من دموع فى القصيدة.الغريب أنه كان يكتب قصيدة النثر،... لم يكن مثقفا لذا بقيت فطرته صافية، لم تخدشها الكتب. هؤلاء الثلاثة أكبر منا سنا، أى أكبر من جيلنا"(١)

تناوله للأشخاص لا يعدو أن يكون وصفا لحالة الأدب فى فترة التشرذمات السياسية،إلا أنه يتأثر بهؤلاء عن طريق الملاحظة والمشاهدة، فمن خلال وصفه لأشخاصه تظهر قريحته النقدية، حيث رأى أن انفعال الشاعر يفسد عليه التحكم فى بناء قصيدته، كما أن القصيدة التى تملأ عين صاحبها بالدموع،فى حين أنها لا تبكى الآخرين، أى لا تؤثر فى المتلقى فهى قصيدة غير ذات تأثير، بالطبع أفاد "نيازى" من كل هذه المشاهدات، وكان لها الأثر الكبير عليه، خاصة وأنه شاعر كبير يهمه ما أشار إليه من نقدات، كما أشار إلى أهمية القراءة المتنوعة، لأنه حكم على "المهدى" بأنه غير مثقف؛ لأنه لم يخدش الكتب، مما يشير إلى أنه استفاد من ذلك على أهمية القراءة بالنسبة للإنسان.

من الشخصيات المؤثرة أيضا، شخصية تعلم منها حفظ الشعر، يقول: "فى عطلة الصف السادس الابتدائى، انكببت على حفظ الشعر القديم بصورة ببغاوية وعشوائية تأثرا بالشيخ حسين. حاولت أن أكونه الشيخ حسين شبه أعمى"(٢).

ثم يحدثنا عن سنوات الجامعة، والتى انتهت فيها نزهة الأدب، وابتدأت مرحلة بتويب المعلومات، حيث "كلية التربية كرنفال آخر، طلاب وطالبات من شتى المدن والأرياف... هذه السنوات الأربع فى كلية التربية، أهم خميرة فى حياتى الأدبية... كان من بين أساتذتنا، مصطفى جواد، كمال إبراهيم، على جواد الطاهر، صفاء خلوصى، نازك الملائكة...، هذه الشلة العجيبة مدارس فكرية

(١) السيرة، ص١٤ .
(٢) السيرة ، ص٢٠

عريقة، بفضلهم كانت خياراتنا أوسع ومداركنا أشمل وأعمق. لقد حبانى على جواد الطاهر باهتمام خاص، وهو الذى أخذ على عاتقه التبشير بالأدب الحديث"(١).

باعتراف الكاتب، هذه الشلة العجيبة مدارس فكرية عريقة، لها الفضل الكبير فى تكوين عقليته، وتوسيع مداركه، خاصة "الطاهر" الذى أولاه عنايته، واهتم به، خاصة فى مجال الأدب الحديث.

أكبر الأثر على كاتبنا كان من أستاذه الذى درّسه اللغة العربية، يقول: "يجدر بى أن أذكر الشاعر العمارى حامد العزّى الذى درّسنا اللغة العربية. شديد الحيوية والتواضع، لا يقارع أو يكابر بمعلومات.. العزى يتدفق شعرا، ينظم القصيدة بسرعة متأنية، وبثمل. يرنم الشعر، يتلذذ وصوت عميق موسيقى (تأثرت بطريقة إلقائه ومازلت) أوصلنا العزّى إلى الشعر الرومانسى وهو الذى عرفنا بإلياس أبى شبكة وعمر أبى ريشة... باختصار، لقد غرس العزى بمدينة الناصرية، أينع الألفاظ وأرق الموسيقى... كان حامد العزى صديقا أستاذاً، وصديقاً أباً، لا يخجل منى حافياً وبالدشداشة وأنا أسير معه على النهر"(٢).

يبدو أن هذه الشخصية من أهم الشخصيات التى أثرت تأثيرا مباشرا فى "نيازى"، حيث درّسه اللغة العربية، فتعلم اللغة، وأخذ منه الحلم والتواضع، وعدم المكابرة بالمعلومات، واضح مدى التأثر فى قوله (تأثرت بطريقة إلقائه ومازلت)، تأثرت مدينة الناصرية بهذا الرجل الذى غرس فيها أينع الألفاظ وأرق الموسيقى، إلا أن تأثره كان أكبر، نظراً للصداقة التى تجمع بينهما.

أما الشخصية الهامة فى حياته، فهى شخصية "أحمد شوقى"، يقول: "أما أحمد شوقى فله مكانة خاصة. أحسست بألفة معه، يكتب بنفس استشرافى أبوى رحيم لا يتدنى، يكتب بأجنحة، لا ينخس القارئ ولا يقارعه، كأن مادته الموسيقية

(١) السيرة ص٣٢، ٣٣
(٢) السيرة ص١٥، ١٦

مجلوبة من صمت عريق سحيق... شعرت فى الكلية ولأول مرة بيتمى، ولا أدرى لماذا؟ لم أكن أشعر بذلك من قبل بنفس أحمد شوقى الأبوى الرحيم كان عزائى، ومعه أشعر بأمان"(١).

واضح مدى الإعجاب بشخصية الشاعر الكبير "أحمد شوقى"، حيث يمثل له الأمن والأمان، تأثر بموسيقاه التى شعر منها بتاريخ خفى مطمور، وكأن شوقى عاش كل العصور، كما يؤكد على ذلك "نيازى"، لقد كان لشوقى الأثر الأكبر على كاتب هذه السيرة، من الناحية الأدبية عامة، والشعرية خاصة. من الشخصيات المؤثرة فى حياة "نيازى"، والتى يعتبرها ضربة حظ بالنسبة له، زوجته "سميرة المانع"، والتى تعرّف عليها فى الكلية، وكانت أكثر منه اطلاعا على الأدب الغربى، والموسيقى الكلاسيكية، يقول: "تعرفت فى الكلية على زوجتى سميرة المانع، فتكهربت حواسى كلها"(٢).

ثم يحكى عن شخصية أخرى هى، شخصية شقيق زوجته "نجيب المانع"، يقول: "تعرفت على نجيب المانع (شقيقها) عن طريقها، فى مقهى البرازيلية... كان يتحدث بتدفق وحيوية عن مطالعاته فى الأدب الغربى، وكنت أحدّثه بعفوية عن بلاغة الأسلوب القرآنى، أصغى نجيب بإمعان. حين يتحدث نجيب يغمر المقابل بطوفان، فإذا استطاب فكرة، يصغى كأنه لا يعرف شيئا، يصغى إصغاء جاهل فضولى"(٣).

أيضا "نجيب المانع" من الشخصيات الأدبية التى أثرت على "نيازى" فى حياته الأدبية.

(١) السيرة، ص٣٤
(٢) السيرة، ص٣٥
(٣) السيرة ص٣٥

وهناك من الشخصيات الثانوية التى أثرت على "نيازى"، منها ما ذكره فى سيرته، "قال لى صديق (وقوله مبالغة فى مبالغة) إنه قرأ كل ديوان عربى مطبوع حتى عام ١٩٥٤م، صدّقته أو صدقت الطريقة التى قال بها، قلدته على الفور. ولأول مرة، ربما بتأثير النقد وآراء الأساتذة، أصبحت انتقائيا فى الحفظ مع تمعن فى أسلوب الشاعر"(١).

فهذه شخصية قد أثرت فيه عن طريق استفزاز مشاعره المحبة للأدب العربى، مع أنه يعرف أن الكلام مبالغ فيه إلا أنه حرص على تقليده، إلا أنه كان انتقائيا فى حفظه؛ نظرا لما يحمل من ملكة نقدية.

من خلال هذا السرد، لهذه الشخصيات، أرى أن هذه الأحداث التى ذكرها لنا، والتى تحدث من خلالها عن شخصياته، لا تعدو أن تكون أحداثا وصفية أعجب من خلالها بهذه الشخصيات التى كان تأثيرها فى الجانب الثقافى فقط، حيث مرحلة التكوين منذ الصبا، أما الشخصيات التى أثرت فيه بعد أن صار اسماً له وجوده، فهى الشخصيات التى ذكرناها عند تناولنا للأحداث، وهى الشخصيات التى عبر من خلالها عن الأمراض الاجتماعية التى تسود العراق، خلاصة القول إنه فى تناوله لشخصياته كان عرضه فى قالب قصصى تقريرى، لا طائل من ورائه إلا نقل الحقيقة، أما الانفعالات التى تترك عمقا وأثرا فى النفس، فلم أرها إلا فى مواقف وأحداث قليلة.

السرد:

السرد فى تعريف موجز هو "خطاب السارد أو حواره إلى من يسرد له"(٢) لكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن، هل من حق كاتب السيرة الذاتية الاعتماد

(١) السيرة ص٣٣
(٢) عبدالرحيم الكردى، السرد فى الرواية المعاصرة، الرجل الذى فقد ظله، تقديم طه وادى ، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط١ ، ص٩

على التقنيات السردية؟ نعم من حق كاتب السيرة أن يستعين بالتقنيات السردية الخاصة بالأجناس الأدبية المشابهة لها مثل (الرواية، والمسرحية، والقصة)، وذلك لأن "للسيرة الذاتية إنشائية عامة ومقومات فنية مشتركة لكنها تكتب بأشكال متعددة... وأن ما يجمع بين نصوصها على قدر ما يفرق بينها"(١)

لقد قام "نيازى" بسرد مفصلا لحياته، منذ أيام طفولته وحتى زمن كتابة السيرة فى عام ٢٠٠٢م، والملاحظ أنه اعتمد فى رواية أحداثه على الذاكرة، التى فرضت عليه فى أغلب الأحوال الاستسلام إلى تداعى المعانى.

لقد استعان الكاتب فى عرض أحداثه بعدة طرق، منها: (الطريقة القصصية . والطريقة التفسيرية التحليلية)، فالطريقة القصصية تمثلت فى السرد المتصل للأحداث والوقائع، والمواقف الناقلة لسيرة حياته، وأطوار شخصيته، فنراه يروى الواقعة تلو الأخرى، مستسلما لما تسعفه به ذاكرته، معتمدا على التداعى الحر للمعانى، وعلى توارد الخواطر.. متبعا فى ذلك، وكان يحاول إيجاد الترابط فى أقسام سيرته، باتباع هذا السرد المتصل للأحداث الذى منحها قدرا من الوحدة والاتساق بين أجزائها"(٢).

وبما أن السرد عامة "يتعلق باليومى من الأحداث، فيغرق السارد فى تسجيل أحداث الحياة اليومية وهى أحداث تأتى مفصلة لكنها متشابهة من حيث طبيعتها"(٣)

لذا كان الواجب على "نيازى" أن يستعين فى سرده بالتواريخ الهامة فى حياته، إلا أنه أسقط ذلك من سيرته، وذلك لتداخل الأحداث بعضها فى بعض،

(١) محمد الباردى، عندما تتكلم الذات، السيرة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٥م، ص١٢٣
(٢) راجع: يحيى إبراهيم عبدالدايم، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، دار إحياء التراث ، بيروت، لبنان، ص٢٦٣
(٣) عندما تتكلم الذات، ص١٠٧ مرجع سابق.

زمانيا ومكانيا، فكانت عنايته التامة بالأحداث، وتفسيرها وتحليلها، إن شئت فقل على حساب الناحية الفنية، أيضا تكاد لا ترى ذكر لأسماء شخوصه إلا قليلا، وأعوذ ذلك إلى عدم إسعاف الذاكرة له، أيضا تجاهله للمذكرات اليومية، وهى طريقة هامة من طرق حماية السرد، أدى ذلك إلى تراجع التقدم للأحداث، وأحدث فراغات تحتاج إلى ملئها، لكن من أين يتأتى ذلك، وهو لا يطيق مشاهدة المذكرات.

إن السارد فى بنائه لمقاطعه السردية يمتاز بطريقة خاصة، "يفضل أن يبدأ المقطع بذكر صفة من صفاته أو صفات إحدى الشخصيات القريبة منه أو بتحديد موقف فكرى ما ثم يأتى السرد الحدثى ليدعم هذه الصفة أو هذا الموقف أو ليبررهما ويفسرهما"(١)

يلقانا ذلك فى سيرة "نيازى"، يقول: "شربت الاعتداد بالنفس، والطموح، منذ البداية، وها أنا اليوم أحاول شيئا مستحيلا"(٢)

فهذه صفة من صفاته، أما ما ذكر من صفات غيره، فقوله: "الأم العراقية ترضع طفلها الغرور مع الحليب"(٣)

وهذا يعد من المقاطع السردية لشكل الرسم الذاتى، حيث يبدأ الكاتب بذكر صفة من صفاته، أو من صفات إحدى الشخصيات القريبة منه، ثم يأتى بالسرد، ليدعم الصفة أو الموقف، أو يبرر ويفسر كما وضحنا سابقا.

لقد سلك "نيازى" طريقا فى السرد، نستطيع أن نقول لم تكن الفنية هى المسيطرة على أحداثه، إلا أنه استطاع أن يعطى للقارئ قدرا من المتعة والتشوق لمتابعة الأحداث.

(١) عندما تتكلم الذات، ص١١١ .
(٢) السيرة ص٦٨ .
(٣) السيرة ص٦٨

الزمن:

فى الغالب الأعم "لم يلتزم الكتاب فى ترجماتهم الذاتية، زمنا بعينه، وهم يسجلون فيها فترات تتراوح بين الطول والقصر، وفق الزمن الذى كتب فيه كل منهم، ترجمته الذاتية، ولعل أفضل الترجمات الذاتية، هى تلك التى كتبها أصحابها فى سن متأخرة، بعد اكتمال خبراتهم وتجاربهم، واكتمال نضجهم العقلى، وبلوغ شخصياتهم قمة التطور.. وربما يكون تراخى الزمان، وتباعد العهد، ينسيان الكاتب شيئا من خبراته وتجاربه، بعد المراحل التى كان قد سبق إلى تصورها من قبل"(١)

فالحقيقة تقول إن تراخى الزمان، وتباعد العهد إلى جانب أنهما ينسيان الكاتب شيئا من خبراته وتجاربه، يجعلونه أيضا يلجأ إلى الإسقاط والحذف، فيسقط بعض الأحداث التى لا تسعفه ذاكرته لذكرها، ولا يهتم إلا بالأحداث الهامة التى تلهمه بها الذاكرة. هذا الإسقاط أو الحذف يحدث كثيرا عند من يصورون فترة زمنية طويلة من حياتهم، ويعد صلاح نيازى واحدا من هؤلاء ؛ لأنه حدثنا عن رحلة طويلة. لكننا نود أن نشير فى نفس الوقت إلى أنه "ليس لدى الكتاب من عمر محدود يعقفون عنده لكتابة سيرهم.. لكن لا ريب فى أن الإسراع إلى كتابة الترجمة الذاتية، فى سن مبكرة، يفوت على كاتبها أمورا كثيرة فقد يكتبها قبل أن تتضح له نتائج تطور خطير فى حياته، وقد يكتبها قبل أن تقف مبادئه فى الحياة واضحة جلية لعينيه"(٢).

إن "الترجمة الذاتية تحاول تفسير تاريخ حياة مؤلفها فى مرحلة زمنية محددة، وتحتفظ بالترتيب الزمنى للأحداث كما وقعت لصاحبها، ولا يقتصر المؤلف فيها

(١)يحيى عبدالدايم ،الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، ص١٥٢
(٢)إحسان عباس ،فن السيرة، ص١٠٠، ١٠١

على سرد الأحداث ولكنه يقف منها موقف الدارس المحلل، كما أن الرابطة التى تربط بين أحداثها مجرد رابطة سطحية تتمثل فى وقوع الأحداث لشخصية بعينها فى زمن محدد"(١).

السؤال الهام، هل التزم "نيازى" بالتسلسل الزمنى فى سرد أحداثه؟ الشكل العام يقول بالتزامه التسلسل الزمنى، لكننى أرى غير ذلك، حيث يقر الكاتب ذاته، قائلا: "لم أكن أمثل مراحل حياتى. كنت أعيشها متداخلة، بوتقة خليط، وكأنها عنصر واحد، رغم تعدد عناصرها، وزمن واحد، رغم تعدد أزمانها. ما وقع لى فى طفولتى، لم ينقطع، نما وتفاعل وتداخل. بدأ ولم ينته"(٢).

لهذا السبب استغنى عن التواريخ فى هذه السيرة، ولكن ليس معنى ذلك أنه راعى التسلسل الزمنى بدقة، وإنما سقطت منه أحداث كثيرة؛ بسبب اعتماده على الذاكرة، التى من خصائصها النسيان، إلا أن ما ساعده على المحافظة على قدر كبير من التدرج فى الأحداث، أنها حدثت فى بلدان عدة، على حسب الترتيب، مما مكنه من تذكر أحداث كل بلد على حدة.

كان الزمن عند "نيازى" يمثل التقلب فى الأحوال، فلا حال يدوم، وذلك مثل العقلية التدوينية التى أشار على أنها كانت موجودة فى العصر العباسى الأول والثانى، إلا أنها سرعان ما انقرضت، وحلت محلها العقلية الشفاهية التى كانت المجتمعات العربية ضحية لها، بل كان الكاتب ذاته ضحية لها.

كان الزمن من العوامل الهامة فى أحداث السيرة، حيث شاهدنا موقفه مع الشرطى، وطريقة تعامله معه قبل الثانية عشرة ليلا، وبعدها، مما يؤكد على أهمية الزمن فى أحداثه، اعتمد "نيازى" على الماضى فى أحداثه، إلا أنه لم يهمل

(١)د/ عبدالمحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر، دار المعارف، ط٥، ص٣٠٤
(٢) السيرة، ص٢٠٤، ٢٠٥ .

الحاضر، فنراه يقول: "غمرتنى النشوة ثانية، حينما تفتحت أمامى أوربا"(١)، ويقول: "كنت أقترب من نفسى أكثر فأكثر"(٢).

لكنه فى نفس الوقت يأمل فى التغيير من خلال الزمن الحاضر، يقول: "شربت الاعتداد بالنفس... ولكنه فى نفس الوقت "أريد أن أعزل حليب الأم عن تلك الأمراض"(٣)، أيضا نجده وقد أراد التخلص فى بعض الأحيان من ماض مؤلم تليد، ليقول: "قررت ألا ألتفت إلى الوراء بعد اليوم"(٤)

وظف الكاتب أيضا الزمن فى تصوير العلاقات الإنسانية بين الشعوب، يقول: "اندفعت وكأن بقوة غيبية إلى دراسة السومريين... المسألة ببساطة، أننى فكرت بجدية، أن مشاكل العراق لا يمكن أن تفهم ما لم يفهم ماضيه"(٥)

ثم نود أن نشير إلى أن المسافة الزمنية التى تناولها الكاتب فى سيرته تعد طويلة نسبيا، لذلك "كان لابد له من اللجوء إلى أسلوب من أساليب تسريع السرد، حتى يتمكن من اختزال الأحداث فى كتاب واحد، والأسلوب الذى يلجأ إليه كاتب السيرة غالبا هو الحذف، أو الإسقاط، إذ يقتصر على سرد أبرز الأحداث التى أثرت فى شخصيته وتكوينه"(٦)

ويلاحظ أن الحذف "تقنية زمنية تقضى بإسقاط فترة طويلة أو قصيرة من القصة، وعدم التطرق لما جرى فيها من وقائع وأحداث"(٧)، إلا أن كاتب السيرة لا

(١) السيرة ص٥١
(٢) السيرة ص٥٧
(٣) السيرة ص٦٨
(٤) السيرة ص٥١، ٥٢
(٥) السيرة ص١٨٨، ١٨٩
(٦) تهانى عبدالفتاح شاكر، السيرة الذاتية فى الأدب العربى، فدوى طوقان، وجبرا إبراهيم جبرا، وإحسان عباس نموذجا ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٢٧ بتصرف.
(٧) حسن بحراوى، بنية الشكل الروائى، المركز الثقافى العربى، بيروت، الدار البيضاء، ط١، سنة ١٩٩٠م، صـ١٥٦ .

يلجأ إلى الحذف، إذا أراد "أن ينمى جانبا كبيرا من التفصيلات، والدقائق التى استعادتها ذاكرته"(١)

لقد اقتصر "صلاح نيازى" فى سيرته على سرد الأحداث الهامة فى حياته، والتى شكلت شخصيته الثقافية، وأسقط كل تافه غير مفيد، وربما يكون لجوئه إلى الإسقاط والحذف لما يتمتع به من أخلاق، فهناك أحداث، خاصة فى بلاد الغرب يأبى الكاتب أن يذكرها لنا.

الزمن الطبيعى:

إن "للزمن الطبيعى ارتباط وثيق بالتاريخ، حيث إن التاريخ يمثل إسقاطا للخبرة البشرية على خط الزمن الطبيعى"(٢)

و"السيرة الذاتية تحتفى بالزمن الطبيعى، أكثر من احتفاء الرواية به، لأنها تسرد وقائع حقيقية، حدثت فى زمن معين، لا مجال لدخول الخيال فى صياغتها، إلا بالقدر الذى يكفى لمساعدة الموقف على بناء سيرته بناء فنيا... ويتمثل إبداع صاحب السيرة بنقل الحدث التاريخى إلى حدث ذاتى"(٣).

قام "نيازى" بفعل ذلك فى سيرته، فى أكثر من موضع، مثل حديثه عن عودته إلى بغداد فى الحلم، يقول: "البارحة حلمت أننى عائد إلى بغداد فى زورق طويل مع شلة من الناس. كان ماء دجلة أسود غريباً، والأشجار مسخمة مخيفة كالأشباح. توقفت عند كهف واسع وفيه تنانير مشتعلة كالبراكين. صعد ثلاثة عسكرين يفتشون عن الهاربين عن وجه العدالة. كانوا يتفرسون فى الوجوه بوجوه

(١) يحيى إبراهيم عبدالدايم، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، سنة ١٩٧٥م، ص٤ .
(٢) سيزا قاسم، بناء الرواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ ، سنة ١٩٨٤م، صـ٤٦ .
(٣) تهانى عبدالفتاح شاكر، السيرة الذاتية فى الأدب العربى، فدوى طوقان، وجبرا إبراهيم جبرا، وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت سنة ٢٠٠٢م، صـ١٣١ .

متعضلة مزمومة، لا انفراج فيها كتجعدات جلد حذاء رخيص لم يصبغ... اقتادونى بعنف، لسعتنى نار أول تنور، فصحت. كنت أرتعش.."[١].

نلاحظ أن الأمر ذاتى، إلا أنه فى نفس الوقت يحكى لنا حال البيئة العراقية، من خلال بغداد التى كان يعيش فيها فى هذه الفترة الزمنية، فالزمن الطبيعى هنا لم يقف عند علاقة التآخى بينه وبين التاريخ الزمنى فقط، وإنما يرتبط ارتباطا وثيقا بالأحداث الخاصة أيضا، كما نلاحظ استخدامه للخيال عن طريق الحلم بالقدر الذى يكفى لبناء سيرته بناء فنيا.

الزمن النفسى:

من المعلوم أن الزمن النفسى يتغير لدى الإنسان بحسب حالته النفسية، فقد تطول الفرحة أو تقصر، وقد تستمر الأحزان لفترة طويلة، وقد تزول فى ساعة، فتقديرها يخضع للنسبية على حسب مدى تأثير الحدث على النفسى.

لو طبقنا ذلك على "نيازى" نلاحظ تغير حالته النفسية بحسب تكيفها مع المجتمع. فعندما تحدث عن انبهاره بهذا المخلوق الحديدى . القطار . ورؤيته للمودعين، نشعر بمدى ما وصلت إليه حالته النفسية من انبهار، لكنه مختلط بالأسى والحزن لفراق الأحباب "منذ طفولتى بالناصرية، وأنا مبهور بهذا المخلوق الحديدى العجيب. نعبر الجسر إلى الجانب الآخر، ونرى مئات المودعين بعيون دامعة... ترتفع الأيدى، وتلوح، ويبدأ صراخ الأمهات"[٢].

وفى أغلب أحداثه فى لندن، نجد فيها ما يسره ويسعد به، ومنها ما يحزنه لعدم تحققه فى بلاده، ففى حديثه عن "لندن" تشعر بأنه يريد أن يبقى أطول مدة زمنية فى هذه البلاد، إلا أن الزمن لا يتوقف به، نظرا للآلام المحيطة به، والتى تجعله فى حيرة مستمرة من أمره، فالزمان لا يجعله يهنأ بأيامه الجميلة فى هذه

(١) السيرة، صـ١١٥
(٢) السيرة ص١١٧ .

البلاد، لأنه يحمل هموم أمة أخرى، يضعها دائما نصب عينيه فى موضع المقارنة، على أية حال، فقد كان للزمان، سواء كان طبيعى أم نفسى أهمية كبرى عند "نيازى"، كما يمكننا القول بأن الكاتب اتبع طريقة التسلسل الزمنى للأحداث، إلا أنه لجأ فى بعض الأحيان لعملية إيقاف مؤقت للسرد، أو إبطاء له، وذلك عندما يذكر المشاهد أو الحوادث العارضة التى تقطع تسلسل الحدث، والسبب فى ذلك اعتماده فى سرده على التذكر.

المكان:

المكان من العناصر الهامة فى العمل الأدبى؛ لأنه الوعاء الذى يحمل الأحداث، فلا يمكن أن تكون هناك أحداث دون مكان، ولم يكن المكان "بناء خارجيا ولا حيزا محدود المساحة، ولا تركيبا من غرف وأسيجة ونوافذ، بل هو كيان من الفعل المتغير، والمحتوى على تاريخ ما"(١)

والمكان ليس المقصود به الشكل الهندسى المتكون من ارتفاعات واتجاهات، وإنما أهميته فى مدى خدمته للعمل الأدبى من خلال ما يقوم به فى عملية بناء النص.

ولقد أجمع الكتاب والأدباء على أن "المكان" فى السيرة الذاتية يختلف عن المكان فى الرواية، "لأن مكان الرواية ليس المكان الطبيعى، فالنص الروائى يخلق عن طريق الكلمات مكانا خاليا، له مكوناته الخاصة، وأبعاده المميزة"(٢)

أما كاتب السيرة الذاتية "فإنه يحاول إعادة خلق المكان الواقعى بالكلمات، بعد أن يضفى عليه المؤلف شيئا من إحساسه به"(٣)

(١)ياسين النصير، إشكالية المكان فى النص الأدبى ،منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ـ بغداد ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م، ص٨
(٢) سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، سنة ١٩٨٤م، ص٧٤
(٣) تهانى عبدالفتاح شاكر، مرجع سابق، صـ١٣٦

من هنا، وبالنظر فى سيرة "نيازى" نلاحظ أن الأماكن التى ذكرها فى سيرته أماكن واقعية، ما كان يمكن أن نقول بقيمتها لولا ما أضاف الكاتب عليها من أحاسيس، ليوحى بأنه "يصور علاقاته الخارجية بالناس والأماكن"(١)

فحين يصور "نيازى" مدينة الناصرية، يقول: "مدينة الناصرية حين وعيتها محاصرة أولا بالفرهود (هجوم الريفين أيام القحط والجفاف على المدينة ونهب بيوتها بضراوة وتوحش). ربما لهذا السبب لم أعن بالفلاحين، ولا بأغانيهم المشبعة بالأنين والبطء والارتخاء..." (٢)، والحدث طويل وملئ بالصور المتعددة، فهذه إحدى الصور، لم يكن الكاتب يقصد تحديد المكان جغرافيا؛ وإنما اتجه مباشرة نحو هدفه وهو تصوير ما يدور بداخل المدينة من أحوال سيئة، فها هم الفرهود الجماعة المتشردة التى تشبه الجراد الذى لا يبقى ولا يذر فى محاصيل الفلاحين، هم كذلك، بل أشد ضراوة، كذلك صور لنا حال الفلاحين، والذى نشاهده فى كل وقت وحين، أغانيهم مشبعة بالأنين، حركات المد فيها طويلة قد تفوق الست حركات؛ وذلك تعبيرا عن مدى الأنين والألم والحسرة المليئة بها نفوسهم. لقد استطاع الكاتب من خلال كلماته وصوره أن يشركنا إحساسه تجاه هذه المدينة المكلومة، "فالمكان فى السيرة الذاتية هو مكان واقعى، لكن صورته لا تصل إلينا كما كانت على أرض الواقع، بل كما كان صاحب السيرة يراها، لأن المكان لا يتشكل بأبعاده الهندسية فقط... ويحق لكاتب السيرة الذاتية أن يذكر أماكن غير واقعية، إذا كان ذلك فى سياق توظيفها توظيفا رمزيا، أو فى سياق سرد حلم، أو كابوس مر به"(٣).

(١) إحسان عباس، فن السيرة، ص١٣٧ مرجع سابق
(٢) السيرة ص١٠
(٣) تهانى عبدالفتاح شاكر صـ١٣٦، ١٣٧ مرجع سابق.

لقد تحقق وجود المكان الحلم فى سيرة "نيازى"، وذلك يتضح من قوله: "كنت منذ بدء وعيى الأول نهب فكرة لم أقلها إلى أحد. ولأنى كتمتها استفحلت، وبصورة ما عزلتنى عما يحيط بى، وصبغت نظرتى إلى الحياة بسوداوية.

كنت أتساءل: ماذا نفعل لو جف النهر؟ أرقتنى الفكرة، لاسيما وأن الحسين وذويه ماتوا عطشا. تصورت أن موتنا عطشا، هو أعسر موت. رحت أبنى فى ذهنى الصهاريج، والأحواض وأجمع المطر. أنظر إلى السماء وما من غيمة. أمطار الشتاء لا تكفى. لا تكفينا، لا تكفى حيواناتنا، لا تكفى نباتاتنا. رحماك أيها النهر لا تجف. رحماك"(١).

فهذا مكان بنته الأحلام؛ لأنه جاء فى سياق سرد حلم، تخيل الكاتب ما يمكن حدوثه، حيث تصور غضب الطبيعة على الإنسان، بل غضب ظاهرة واحدة من ظواهرها، والمتمثلة فى النهر صاحب الحيز والمكان المحدد، بطوله وعرضه وعمقه، لكن الكاتب وظف كلماته فى غير ذلك تماما، حيث أراه وقد حذر الناس من غضب السماء، نتيجة أفعالهم وأحوالهم وتصرفاتهم، ومن ضمن الأحداث المحزنة التى أشار إليها والتى تغضب الله ورسوله، ما فعل الناس من فعلة شنيعة حيث موت الحسين رضي الله عنه وأرضاه عطشا، وذلك أعسر موت كما صور الكاتب، انظر إلى كلماته (رحت أبنى فى ذهنى الصهاريج – الأحواض –أجمع المطر –انظر إلى السماء وما من غيمة –أمطار الشتاء لا تكفى) أى أمل بعد ذلك، فمن الممكن حدوث تصورات الكاتب؛ وذلك نتيجة حادثة واحدة قام بها الناس، وهى موت سيدنا الحسين، المهم فى الأمر أن الكاتب شكل بكلماته وجمله كتلة من المشاعر والأحاسيس جعلتنا نقف إلى جواره فى فكرته، ونؤيدها تماما. قدرة فائقة أن يخلق أماكن ذهنية، يسردها فى سياق حلم ويصل إلينا بفكرته التى يريد التعبير عنها.

(١) السيرة ص٢٥

المكان كما قلنا لابد له من دور فى خدمة بناء النص، وتسلسل سرد أحداثه، كما يريد الكاتب من خلاله أن يصل برؤيته إلى المتلقى، فمثلا عندما يتحدث عن بغداد، يقول: "شرعت بغداد فى الخمسينات تجترح معجزات صغيرة، فقد ظهر فى تلك الفترة أهم المهندسين المعماريين، والمحامين والرسامين والنحاتين والاقتصاديين بالإضافة إلى أهم رموز الشعر الحديث والقصة والرواية، بغداد فى تلك الفترة، بالمقارنة بالناصرية، أسرع إيقاعا، وأكبر حيوية. يتنافس فيها القديم والحديث بانسجام"(١)

لم يكن الكاتب يهدف إلى وصف المكان بغداد، وإنما أراد الحالة التى وصلت إليها، إنها مرحلة تقدم وتطور واستقرار، نضج فيها كل شئ، جميع المهن أخذت وجهتها الصحيحة، وصلت لدرجة من التنافس بين القديم والحديث، لا القديم يجور على الحديث ويرفضه، ولا الحديث ينكر القديم ويقلل من شأنه، نهضة شاملة فى الصناعة، والهندسة، والرسم، والشعر، والأدب عامة.

أراد الكاتب أن يصور لنا حال الناس فى عاصمة العراق فى فترة الخمسينات، وهى الفترة السابقة للفترة الديكتاتورية التى بسببها ترك العراق. إن اللمسات التى يضعها الكاتب من خلال كلماته وجمله وأساليبه، هى التى تأخذ بلب العقول، وتجذب القارئ ليشاركه إحساسه. وأخيرا يمكننا القول بأن صورة المكان لا تصل إلينا كما هى فى أرض الواقع، وإنما تصل إلينا كما يراها صاحب السيرة. هذا ومن يدرس الأماكن فى سيرة "نيازى" يجده لا يبتغى تصوير المكان كما هو على أرض الواقع؛ وإنما يضفى عليه من أحاسيسه ومشاعره، ليخدم من خلاله أفكاره وأحداثه فى بنائها وتسلسلها وتطورها، حتى يصل إلى القارئ ويضطره إلى مشاركته فى كل آلامه وآماله، وهذا ما يصبو إليه الكائن السردى.

الصراع:

(١) السيرة ص٣٠

الصراع من أهم مظاهر الحياة الشخصية لكاتب السيرة الذاتية، يقول د/إحسان عباس: "من أجل هذا أرى أن حظ السيرة الذاتية من البقاء منوط بحظ صاحبها نفسه من عمقه الداخلى أو شدة الصراع الخارجى"(١)، والسيرة الذاتية "تحقق لكاتبها التوافق والاتزان، إذا تُيسر له أن يعيش حياته الداخلية والخارجية العليا من خلال ذكرياته؛ والكشف عن أسرار حياته الباطنية؛ وتأمل ذاته العميقة، بما فيها من ثراء داخلى، يمثل عالما أصغر"(٢)

إن قيمة السيرة الذاتية ترجع إلى قدرة الكاتب على نقل أحاسيسه للقارئ ليتفاعل معه، ويشاركه تجاربه، لأن "حظ الترجمة الذاتية من البقاء، يرجع فى الغالب، إلى مدى ما تنقله لنا من أحاسيس كاتبها بالصراع، الذى يثير فى نفوسنا ألوانا من المشاعر تحفزنا على مشاركته تجاربه وخبراته، وعلى تعاطفنا مع مواقفه وأفعاله"(٣)

من أجل ذلك كان من ضمن دوافع كتابة السيرة الذاتية أن يميل "فيها الكاتب إلى رسم الحركة الداخلية لحياته، مغفلا الاهتزازات الخارجية فيها إهمالا جزئيا"(٤)

إن هدف كاتب السيرة الذاتية هو التخلص من الأزمة النفسية التى يشعر بها، سواء كانت أزمة نتيجة الاضطهاد المجتمعى، أو أراد التخفف من الشعور الجاسم على صدره، أو مدى شعوره بذنوبه وآثامه فأراد التخلص منها ليريح ضميره عن طريق الحديث مع الآخرين، خاصة إذا كان الكاتب ذا شأن فى المجتمع، "فإذا كان الشخص الذى يترجم لنفسه ذا منزلة خاصة فى المجتمع، وكان يرمى إلى إنشاء التعاطف بينه وبين القارئ، وأقام سيرته فى بناء فنى ولم

(١) إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر بيروت، ط١، سنة ١٩٩٦م، ص٩٨.
(٢) د/عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية للنشر والتوزيع، سنة ١٩٩٢م، ص٧
(٣) يحيى إبراهيم عبدالدايم، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، صـ١٥٠ مرجع سابق
(٤) إحسان عباس ، فن السيرة ص٩٩

يغفل فيه قيمة الأسلوب وتأثيره، وكان ماهرا فى الربط بين الصورة الداخلية لحياته ومنعكساتها فى الخارج"(١)

الصراع ينتج نتيجة اصطدام الإنسان مع المجتمع وذلك الغالب الأعم، كما ينتج عن تصادم الأفكار والمعتقدات، ينتج أيضا عندما يرغب الإنسان فى تحقيق هدف ما ثم يعجز عن تحقيقه.

فإذا نظرنا إلى "نيازى" فى موقف من المواقف، نلحظ أنه يمر بمرحلة قاسية، معلق فيها بين السماء والأرض، يقول: "ما أصعب أن يعيش الإنسان بين بين، الأصعب من ذلك أن يعيش فى فراغ. العودة من باب المستحيل نفسيا لاسيما والأوضاع بالعراق تزيد شراسة وتوحشا، البناء عسير بلا جذور، هل أعيش فضلة؟ وزوجتى وطفلتى"(٢)

صراع نفسى مرير يعيشه الكائن السردى، حيث يعيش فى فراغ، يصيبه إحساس أنه فرد لا قيمة له فى المجتمع، لأنه لا يستطيع أن يقوم بعملية البناء دون عودة إلى الجذور، وصلته بالجذور تكاد تكون مفقودة؛ لأن العودة للعراق باتت من المستحيل؛ بسبب سوء الأوضاع فيها، يشعر الكاتب أنه يقف مكانه، لا هو بالسعيد فى بلاد الغرب، ولا هو بالمتمكن من العودة إلى جذوره التى يعشقها، صراع آخر يتمثل فى غياب زوجته وطفلته عنه، حيث هاجر إلى لندن دون التمكن من مرافقتهم له. الأمور وصلت لدرجة العقدة التى تحتاج إلى حل، فالكاتب يريد التخلص من أزمته النفسية ليشاركه المتلقى فيها، علّه يساعده فى وجود حل لهذه الأمة . لم يكن قصد الكاتب فى هذه الحالة العرض فقط، وإنما الملفت للنظر قدرته الأسلوبية الفائقة، من مثل (بين بين – من باب المستحيل – هل أعيش فضله؟)، وكلها كلمات تعبر عن حالة فردية خاصة بها، كما أنه

(١) إحسان عباس، فن السيرة، ص٩٩ مرجع سابق
(٢) السيرة ص٧٠

استطاع أن يربط بين ما عليه نفسه من الداخل، وبين الأوضاع الخارجية ذات الصلة، فأوضاع العراق السيئة سبب رئيسى من الأسباب التى أوصلته لهذه الحالة النفسية. إن من أهم قيم الصراع أنه يساعد على تقدم وتطور السيرة الذاتية من حيث البناء والفنية، كما يسهم فى الكشف عن أسرار حياة الكاتب الباطنية، ويجعلنا نتمكن من تأمل ذاته العميقة.

يحدثنا فى موقف آخر، وصراع نفسى جديد، حيث ازدواج الشخصية، فكثير من الناس يزهو بنفسه ويضعها فى مكانة سامقة، لكنه بينه وبين نفسه يشعر بمدى ضعفه وهشاشته، وما ذلك إلا لداء الغرور القاتل، يقول: "شخصيتى مزدوجة. بينى وبين نفسى، أنا إنسان هش، وبينى وبين الناس، أنا الفارس المغوار هل من مبارز؟ كان على أمهاتنا . وهن أصل الداء . أن يزقفنا التواضع مع الحليب"(١)

أراد الكاتب أن يتخلص من هم نفسى يؤرقه، حيث الشعور بالعظمة مع أن الحقيقة هى التى يشعر بها، حيث يشعر بالهشاشة. غرض الكاتب من عرض هذا الحدث أن ينبه على قضية اجتماعية خطيرة، تكاد تكون موجودة فى أغلب الدول العربية، ألا وهى قضية "ازدواج الشخصية"، حيث عدم المطابقة بين الداخل الذى يشعر به، والخارج الذى يريد أن يراه منه الناس، إلى جانب ذلك فالصراع من التقنيات التى تساعد فى بناء العمل السيرى، وتعمل على بناء الأحداث تسلسلياً تطورياً تقدمياً إلى الأمام، دون الرجوع إلى الخلف، لكنه فى هذا الحدث لم يترك العقدة ليشاركه القارئ فى حلها، إنما وضع لنا الحل، حيث كان من الواجب على الأمهات أن يزقفنا لأبنائهن التواضع مع الحليب، هكذا أغلب النماذج التى تحمل بداخلها الصراع فى سيرة "نيازى"، تؤدى دورها فى بناء العمل الفنى على أكمل وجه، وكما يجب أن يكون.

(١) السيرة ص٨٣

الحوار:

من التقنيات التى يمكن لكاتب السيرة استخدامها، تقنية الحوار، فمن خلاله تتضح الشخصية، وتعرف قدرتها على التفكير، فالحوار "صفة من الصفات العقلية، التى لا تنفصل عن الشخصية بوجه من الوجوه"(١)

للحوار أهميته البالغة فى بناء الأحداث، وتطورها، كما أنه يكشف عن الشخصيات فى العمل الأدبى، ويقوم بعملية إحياء للسرد، "إن الحوار المعبر الرشيق من أسباب حيوية السرد وتدفقه، والكاتب النقى البارع هو الذى يتمكن من اصطناع هذه الوسيلة الفعالة، وتقديمها فى مواضعها المناسبة"(٢)

فلو نظرنا إلى "الحوار" عند نيازى نجده وقد عبر عن عقليته التى لا تنفصل عن شخصيته، يقول: "رأيت رجلا مسنا يخرج من البيت الذى أسكن فيه، لا ينم زيه ولا مشيته على أية لصوصية. مع ذلك شككت به. اندفعت وراءه، وبصوت يابس متجهم سألته ما الذى كان يفعله فى البيت رقم (٢٦) قال وما الذى يهمك من الأمر؟ قلت بصوت يابس متجهم: إننى أسكن هناك،.. قال تشرفنا، اسمى مستر "جون"، لقد ذكر لى قبل أشهر سيد البيت أن الغرفة مؤجرة. ما اسمك: قلت: مستر نيازى، قال تشرفنا ومضى. حين عاد سيد البيت وزوجته من اسكتلندا،.. قال سيد البيت إن مستر "جون " يسكن منذ سنتين فى الطابق التحتانى، وهو متقاعد لأسباب صحية. إنه رجل منقطع إلى نفسه، وله اختراعات مهمة فى الكهرباء، ولاعتزاز الشركة به، فإنها تدفع له راتبا شهريا وتشترى منه اختراعاته الجديدة"(٣)

(١) محمد نجم ، فن القصة، دار الثقافة بيروت، ط١، سنة ١٩٦٦م، ص١١٧
(٢) محمد نجم، فن القصة، ص١١٨ ، مرجع سابق
(٣) السيرة، ص٨٤

يتعجب نيازى فى النهاية من الأمر، فيقول "يا لله، رجل بهذا المقام، لا يسوّق نفسه للناس ولا يبشّر بها، رجل منقطع كلية إلى الاختراع بصمت وبلا منّة. لماذا لا أنزع عن صدرى نياشينى الكاذبة؟ لماذا لا أكون مثله، جذراً صامتاً وعميقاً؟"(١)

قلنا أن "نيازى" اعتمد فى سيرته على المنهج المقارن، فهو فى هذه الحالة ومن خلال الحوار الرشيق استطاع أن يكتشف سر تقدم الغرب، فالرجل يسكن فى الدور الأرضى، فى غير صخب ولا ضوضاء، مع أنه شخصية هامة فى مجتمعه، حيث اكتشف من خلال الحوار أنه من العلماء المخترعين فى مجال الكهرباء، وصلت اختراعاته لدرجة تقدره فيها الهيئة لدفع له راتبا شهريا، وتشترى منه هذه الاختراعات، على الجانب الآخر اكتشف "نيازى" ضآلة شخصية إلى حوار هذه الشخصية الهادئة المتزنة، مما دعاه أن يصدر حكماً على نفسه يقرر فيه نزع نياشينه الكاذبة، التى تتمثل فى زهوه وغروره بنفسه، مثله مثل أى عربى رضع الغرور مع ألبان الأمهات، استطاعت وسيلة تقنية الحوار أن تعمل على حيوية السرد وتدفقه، كما استطاعت الشخصية الساردة من خلال الحوار أن تصل إلى نتيجة حتمية، وهى أن "نيازى" لابد أن يكون جذرا صامتا وعميقا؛ لأن هذا شأن العظماء دائما، فلم يكن الحوار فى هذا الحدث لمجرد الحوار، وإنما أتى بثماره من خلال المقارنة بين وضع الغربى صاحب الجذور العميقة فى أعماله، والعربى الذى يرغب دائما فى الطفو على السطح رغبة فى الحديث عنه فى حق وفى غير حق.

وفى حوار آخر مع شخصية أخرى، عندما كان فى مستشفى العيون ينتظر دوره فى الكشف، حيث القاعة ممتلئة بالمرضى، كان إلى جانبه رجل عجوز شعر فى نفسه بفرح لوجوده بجوار، يقول: "قلت بنفسى لا أسهل منه فى الدخول معه

(١) السيرة، ص٨٤

فى صداقة مهما كانت عابرة... فعلا لم يتوقف. لعن الحرب والحكومة عدة مرات.. عما لحق صدره من تلف من جراء الغازات السامة.. من يساعدك فى شراء حاجياتك؟

أدفع للبلدية ثمنا مقطوعا وهم يجلبون لى وجبات الطعام وهم مسئولون عن تنظيف البيت.

هل زوجتك معك؟

ماتت

هل لديك ذرية؟

ولدان متزوجان.

... هل يساعدك والداك؟

التفت إلىّ بكل رأسه. صب عينيه النّازتين كاللحم النئ فى عينىَّ وقال بغضب: هل أنت مجنون؟ لهما حياتهما الخاصة، يجب عليهما أن يرعياها. ليتمتعا بها، كما تمتعت أنا أيام شبابى. حياتى مسؤوليتى، وليست مسؤولية أحد غيرى، أعاد رأسه إلى ما كان عليه، ولم يكلمنى قط.. بلعت الإهانة كأحسن ما يكون عليه بلع الإهانات، قررت منذ تلك اللحظة، ألا أعود إليها، تلك توبة نصوحة"(١)

يناقش الكائن السردى من خلال هذا الحوار عدة قضايا فى أسلوب أدبى رشيق، من هذه القضايا من وجهة نظرى الثرثرة التى يقوم بها الناس فى عيادات الأطباء، دون أن يراعوا حرمة لمريض، درجة عالية من الفضول لدينا نحن العرب لمعرفة الأمور الخاصة بالآخرين، القضية الأهم، خطأ الوالدين فى تربية أولادهم

(١) السيرة، ص١١١، ١١٢

وعدم تحملهم لمسئولياتهم الخاصة بهم منذ الصغر، فالرجل العربى يظل طفلا يحمل مسئوليته أبواه حتى لو كان لديه أولاد، وهذا مدعاة إلى التكاسل والفشل وعدم القدرة إلى تحمل المسئولية، فلما سأل "نيازى" الرجل، التفت إليه بكل رأسه مستغربا الأمر، ووصفه بأنه غير عاقل، فاقد لصوابه، فما زال الكائن السردى يستخدم لتقنية الحوار الذى يدفع السرد إلى الأمام، بل يتدفق السرد من خلاله، كما أنه قدم الحوار فى موضعه المناسب، حيث كشف عن طريق المقارنة بين الشخصية الغربية، والشخصية العربية، مبينا لقضايا هامة، يدعو من خلالها القارئ ضمنيا أن يتخلى عن هذه الصفات الذميمة، وهكذا فى كل حوارات نيازى القليلة الموجودة فى ثنايا السيرة، تؤدى هذه التقنية دورها على أكمل وجه، سواء على مستوى خدمة السرد، أو على مستوى الهدف المرجو من ورائها.

اللغة:

هى التى يمكن للإنسان أن يعبر من خلالها عن أفكاره، ومشاعره وانفعالاته، "فهى ظاهرة أو حقيقة اجتماعية تستخدم لكى تثير عند الأفراد والآخرين استجابات محددة"(١)

جاءت لغة "نيازى" مراوحة بين استخدام الفعل الماضى، والفعل المضارع.

إلا أن الفعل الماضى سائدا فى أغلب أحداث سيرته، وذلك لأن الفعل الماضى يعتمد على التذكر الخبرى الذى يقصد الكاتب من ورائه نقل الحقيقة، أما المضارع فعندما يستخدم فى السيرة فإن القارئ يتوهم أن لحظة الكتابة هى نفسها لحظة وقوع الحدث، فنيازى فى سيرته لا بغية له إلا نقل الحقيقة، ولا ملجأ له إلا الصدق، ولا يبتغى تخييل ولا إيهام، فمن استخداماته للفعل الماضى، قوله: "غابت

(١) أحمد إبراهيم الهوارى، نقد الرواية فى الأدب العربى الحديث فى مصر، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية الإنسانية، سنة ١٩٩٣م، صـ٧٧

الذاكرة بعد ذلك، وعادت على مشهد والدى على فراش أبيض فى غرفة بمفرده"[١]، ليس هذا فقط، وإنما لا تقع عينك على أغلب أحداث سيرة نيازى إلا وتجد فيها الفعل الماضى متمثلا

حتى تعبيره بالفعل المضارع، تجد فيه دلالة على الماضى، يقول: "ثم تغيب الذاكرة نهائيا"[٢]، وفى حديثه عن بيوت رثة متناثرة، يقول: "لا تثير فضول الأطفال، ولا تنافس أخلاقيات الكبار"[٣]، فهى أفعال مضارعة فيها دلالة الماضى

لكن ليس معنى ذلك أن الأفعال المضارعة قليلة فى السيرة قلة مشاهدة، وإنما هى أقل من الأفعال الماضية، فهناك فقرات كاملة، مثل الفقرة التى يتحدث فيها عن مدينة "الناصرية" لا يستخدم فيها سوى أفعال المضارعة[٤]

أما الأفعال التى تدل على التحول من حال إلى حال، ففى مثل قوله: "فى سنوات الجامعة، انتهت أيام النزهة فى الأدب، وابتدأت مرحلة تبويب المعلومات"[٥]

وكثيرا ما يؤكد على عملية التحول بعبارة "ها أننى"، يقول: "إننى ضحية بيئة أورثتنى العصاب والرهاب وشتى الأمراض النفسية، وها أننى اليوم بلندن أعيش دورة نقاهة"[٦]

استخدم "نيازى" بعض اللغات العامية فى سيرته، من مثل الكلمات (غليون . تعيط . عرضحالجى . الله يفضحك . نشفت فلوسى . أسطى)" [٧]

(١) السيرة، ص٧
(٢) السيرة، ص٧
(٣) السيرة، ص٨
(٤) راجع السيرة ص١١
(٥) السيرة ص٣٢
(٦) السيرة ص١٦٥
(٧) راجع السيرة ص١٠، ١١، ٢٢، ٤٦، ٥٦، ١٦٧

واشتملت سيرته أيضا على بعض الكلمات الصعبة الغريبة، مثل:- كلمة "يشماعة" فى قوله "شد سائق السيارة يشماعة على أنفه"(١)

كما تجد تطعيم الحوار ببعض المصطلحات الإنجليزية، وذلك واضح من خلال الحوار الذى دار بينه وبين سيدة البيت الذى يسكن فيه عندما دعته للقاء بعض أقاربها، يقول سمعت سيدة البيت تقول:

It is not my cup of tea

أليس كذلك يا صلاح؟ ذهلت أول الأمر وشعرت بإهانة"(٢)

احتوت أيضا سيرة "نيازى" على لغة "المثل" من مثل قوله: "إن إنهاء الجملة "بكل يوم" كانت بمثابة "دعك الملح فى الجرح" كما يقول المثل الإنكليزى"(٣)

أما الحكمة، فكان لها وجودها أيضا حيث دورها المؤثر، واستخدامها فى موضعها، يقول: "كنت أجتر نفسى، حين خطرت ببالى فكرتان... الفكرة الثانية "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا" "(٤)

وهناك أفعال اشتملت عليها السيرة، دلت هذه الأفعال على توقف السرد، وذلك قد يحتاجه السارد لالتقاط الأنفاس، أو للتهدئة من موقف أدى به إلى ثورة، وهذا مثل: "ظل المكان المجاور لى خاليا، وظل مكان الشرطيين خاليا، فشعرت بخوف ورهبة وحيرة، لم يكن أحد غيرى فى هذه المقصورة"(٥) وهذه الحادثة ذكرها عندما اقترب من الوصول إلى الحدود السورية، وقيام الشرطة بتفتيش الناس جميعا بما فيهم هو، وإذ به يتوقف عن الحديث، نظرا لأنه التفت ولم يجد أحدا حوله

(١) السيرة ص١٣٢
(٢) السيرة ص٥٩، وراجع أيضا السيرة ص٦٦
(٣) السيرة ص٦٧، وانظر ص٨٦
(٤) السيرة ص٥٧
(٥) السيرة ص٤٣

لقد استخدم الكاتب "لغة بارعة رشيقة وأنيقة وفيها أحيانا زمجرة الأسد الجريح أيضا. اللغة التى كتب بها الكتاب ذات نكهة شعرية جميلة يحس القارئ أو القارئة من خلالها بمعاناة الكاتب فى اختيار الكلمة والجملة المناسبتين رغم سلاسة ما وصل إلينا منه. فالكلمة لها جدليتها الخاصة ومكنوناتها"(١)

وهكذا، يتضح لنا أن لغة "نيازى" فى سيرته ليست لغة جدل، وإنما هى لغة عقل وفكر يهدف من ورائها الوصول إلى قارئه، لذا نراه يعتمد على الأسلوب القصصى الوصفى أحيانا، وأحيانا على الأسلوب التفسيرى التحليلى، فهو يميل إلى العقل، ويعتمد على الحجة والإقناع، كما أننا نراه قد استخدم اللغة الشعرية عن طريق استخدامه للكثير من أبيات الشعراء القدامى، والتى استخدمها فى التدليل على ما يرنو الوصول إليه من أهداف.

الضمير:

لقد استعمل "نيازى" فى سيرته ضمير المتكلم، وهو الأمر الطبيعى فى السيرة الذاتية، لأن ضمير المتكلم يجعل حضور الشخصية حضورا أساسيا فى السيرة، والأمر البديهى أن "ضمير المتكلم لا يدرك دون ضمير مخاطب (القارئ)، غير أن هذا الأخير يبقى ضمنيا هو الآخر"(٢)، وضمير المتكلم له دلالته التى تؤكد على التطابق التام بين السارد والشخصية الرئيسية، من هنا رأينا "لوجون" يقول: "غالبا ما يتحدد تطابق السارد والشخصية الرئيسية الذى تفترضه السيرة الذاتية، من خلال استعمال ضمير المتكلم"(٣).

(١) د/ كاظم حبيب، قراءة فى كتاب غصن مطعم فى شجرة غريبة (سيرة ذاتية) للدكتور صلاح نيازى، العدد ١٦٢٣ بتاريخ ٢٢/ ٦/ ٢٠١٣
(٢) فيليب لوجون، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبى ، ترجمة عمر حلى، المركز الثقافى العربى، ط١، سنة ١٩٩٤م، ص٢٧
(٣) فيليب لوجون، ص٢٤، ٢٥ مرجع سابق

والسؤال الهام، هل معنى ذلك أن السيرة التى تعتمد على ضمير الغائب لا تعد سيرة؟

يقول "لوجون" مجيبا عن ذلك: "يمكن أن يكون هناك تطابق بين السارد والشخصية الرئيسية فى حالة الحكى "بضمير الغائب"، ويقام هذا التطابق بطريقة غير مباشرة؛ لأنه لم يعد مثبتا داخل النص بفضل استعمال "ضمير المتكلم""[١]

ويتم هذا التطابق من خلال ثلاثة مصطلحات "المؤلف، السارد، والشخصية" فالسارد والشخصية هما الصورتان اللتان تحيل إليهما، داخل النص، ذات التلفظ، وذات الملفوظ، والمؤلف، الممثل فى حاشية النص عن طريق اسمه"[٢]

أما إذا أردنا معرفة كيفية تحقق هذا التطابق بين (المؤلف . السارد . الشخصية)، فذلك يتم عبر طريقتين "١ – ضمنيا: على مستوى العلاقة مؤلف – سارد، بمناسبة ميثاق السيرة الذاتية، ويمكن لهذا الأخير أن يأخذ شكلين: أ – استعمال عناوين لا تترك أى شك حول كون ضمير المتكلم يُحيل إلى اسم المؤلف. ب – مقطع أولى للنص يتحمل فيه السارد التزامات أمام القارئ وذلك بالتصرف مثل المؤلف، بطريقة تجعل القارئ لا يحمل أى شك حول كون ضمير المتكلم يحيل إلى الاسم القائم على الغلاف، وإن كان هذا الاسم غير وارد فى النص"[٣]

بتطبيق ذلك على سيرة "نيازى"، نجده ملتزم أمام القارئ من خلال عنوانه، على أنه هو، يقول: "حقا حفظت الشعر العربى... لكن كنت مثل غصن طُعم فى شجرة غريبة"[٤]، وبذلك يكون قد أتى بالعنوان الذى يدل على أنه هو المؤلف،

(١) فيليب لوجون، ص٢٥، ٢٦ مرجع سابق
(٢) فيليب لوجون، ص٥١، ٥٢ مرجع سابق
(٣) فيليب لوجون، ص٣٩، ٤٠ مرجع سابق
(٤) السيرة ص١٤٠

وهو السارد، ويؤكد على ذلك فى موضع آخر، يقول: "كنت طيلة حياتى، كغصن مطعم فى شجرة غريبة"(١)

ومن وجهة نظرى الخاصة عند دراسة العنوان، والذى هو "غصن مطعم فى شجرة غريبة"، نجد أن إعرابه غصن "خبر لمبتدأ محذوف" والتقدير "أنا غصن" ففيه تأكيد على أنه هو، وبذلك يكون التزم بميثاقه مع القارئ.

بالنظر فى أغلب أحداث وفقرات سيرة "نيازى" نجد أن ضمير المتكلم الذى اعتمد عليه فى سيرته لا يغيب عنك، فلا تكاد تخلو صفحة من الصفحات دون أن تجد فيها الضمير الذى يؤكد التطابق بين السرد والسارد (المؤلف والشخصية)، كما نلاحظ أيضا استخدامه لضمير الجمع؛ لأنه يتحدث عن مجموعة من الناس يشتركون معه فى نفس الظروف، وفى نفس البيئة. وذلك يتمثل فى قوله على سبيل المثال: "أوصلنا العزِّى إلى الشعر الرومانسى وهو الذى عرفنا بإلياس أبى شبكة وعمر أبى ريشة"(٢).

ويقول أيضا: "اهتز العراق من أقصاه إلى أقصاه بثورة ١٩٥٨م، فاض التفاؤل وبلغ أقصاه... فرحنا وفرحنا ثم ثم ثم تعبنا من الفرح والتفاؤل"(٣).

وهناك كثير من الأمثلة التى يتمثل فيها "ضمير الجمع" الدال على اشتراك كثير من الناس معه فى شتى الأحوال.

(١) السيرة ص١٨٩
(٢) السيرة ص١٥
(٣) السيرة ص٣٧

الخاتمة

الحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات، الحمد لله على جزيل عطائه وفيض إحسانه، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين، ومن سار على نهجه واقتدى بسنته إلى يوم الدين

وبعد

فمن خلال مصاحبتى لكتاب السيرة الذاتية، للأديب "صلاح نيازى" والذى تحت عنوان "غصن مطعم فى شجرة غريبة"، وجدت أن الكاتب عبّر فى هذا الكتاب عن رحلته الطويلة الممتدة من طفولته، وحتى كتابة سيرته فى عام ٢٠٠٢م، اتضح لى من خلال سرده لأحداث حياته أنه صاحب قدرة فنية هائلة، تمثلت فى منهجيته المتفردة، حيث اتخذ لنفسه منهجا خاصا تفرد به عن غيره من كتاب السير، هذا المنهج، هو المنهج المقارن، حيث قارن فى أحداثه بين الشرق والغرب، تمثلت قدرته الفنية أيضا فى طريقته الأسلوبية المميزة، ولقد عبر الكاتب فى هذه السيرة عما يشعر به فى أعماق نفسه، وعن آماله، وآلامه جراء ما يحدث فى بلاده، لاحظت أيضا وجود شخصية جادة، إلا أنها حزينة نتيجة لقسوة الظروف، والأوضاع السيئة التى شاهدها منذ بدايات حياته، كما نلاحظ أيضا مدى شعوره بالغربة الجسدية، والغربة النفسية فى آن واحد، مما جعله فى حيرة دائمة لم يتمكن من الخلاص منها.

والآن نشير إلى أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة، وهى كما يلى:

١ – عنوان سيرة "نيازى" حمّال أوجه، يجعلك تحلّق فى فضاء رحب.
٢ – تضمنت السيرة أفكاره فى الحياة السياسية والثقافية والأخلاقية.

٣ – صور من خلال أحداث سيرته جوانب حياته المختلفة من خلال المنهج المقارن.

٤ – خلع كل الأقنعة وفضل الاستلقاء على سرير طبيب نفسانى هو ذاته، فكان صادقا مع نفسه رغبة فى التخلص من علله النفسية.

٥ – تشعر كأنك تتعامل مع فيلسوف وحكيم.

٦ – رأى أن اقتران النثر بالشعر أمر طبيعى حيث لا يوجد ما يمنع التواصل.

٧ – اعتمد على ضمير المتكلم الذى يؤكد على التطابق بين الشخصية والمؤلف والسارد.

٨ – استخدم تيار الوعى الروائى الذى يدل على انثيال الأفكار.

٩ – سرد حياته منذ طفولته حتى زمن كتابة السيرة، متقيدا بالتسلسل الزمنى، حيث ترتيب البلاد (الناصرية . بغداد . حلب . تركيا . ميلان . لندن).

١٠ – اعتمد فى سرد أحداثه على الذاكرة، مما كان سببا فى إسقاط وحذف بعض الأحداث.

١١ – وجدت بعض العيوب الفنية التى أخلت بعملية السرد.

١٢ – اعتمد فى بعض الأوقات على التفسير والتحليل، وكذلك على الوصف.

١٣ – اهتم بالشخصيات والأماكن التى كونت شخصيته.

١٤ – تميز بتحرى الصدق والصراحة.

١٥ – اعترف على نفسه فى كثير من الأخطاء مما يعد جرأة منه.

توصية

أوصى بالاهتمام بدراسة فن السيرة بنوعيه، وكذلك الرواية، والقصة، والمسرحية فى جامعة الأزهر، لأننى أشعر بتقصير فى هذا الجانب.

وبعد

فقد بذلت أقصى جهدى فى هذه الدراسة حتى خرجت على هذا الشكل، الذى أتمنى من الله تبارك وتعالى أن ينال رضا كل من يطلع عليها، كما أتمنى أن أكون قد أفصحت عن حياة شخصية أدبية لها وزنها الأدبى بين الأدباء – شخصية "صلاح نيازى" – كما أدعو الله تبارك وتعالى أن يكون هذا العمل إضافة جديدة لمكتبة البحث الأدبى.

وأخيرا فإن وفقت فبفضل الله ونعمته، وإن أخطأت فمن نفسى التى من خصائصها الخطأ والنسيان.

أدعو الله تبارك وتعالى التوفيق لكل من يُقدم على عمل علمى فيه فائدة لخلق الله. والحمد لله رب العالمين

د/ نبيل أحمد عبدالعزيز أبورفاعى

المصادر والمراجع

١ – إبراهيم يحيى عبدالدايم . الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث . دار إحياء التراث.

٢ – ساخاو . عبدالفتاح الصعيدى . معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، ج٣ . ط١، ٢٠٠٣، ١٤٢٤هـ.

٣ – وديع العبيدى، صلاح نيازى "صورة فى الثمانين" ديوان العرب منبر حر للثقافة والفكر والأدب، الخميس ١٩ مارس ٢٠١٥م.

٤ – فيليب لوجون، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبى، ترجمة عمر حلى، بيروت، المركز الثقافى العربى، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٥ – شكرى المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتى، السيرة الذاتية فى كتاب الأيام لطه حسين . دار الجنوب للنشر، تونس، ط١، ١٩٩٢م.

٦ – عبداللطيف الحديدى، فن السيرة بين الذاتية والغيرية فى ضوء النقد الحديث، دار السعادة للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٧ – هانى العمد، دراسات فى كتب التراجم والسير، المؤسسة الصحفية الأردنية، ط١، ١٩٨١م.

٨ – ماهر حسن فهمى، السيرة تاريخ وفن، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٩٨٣م.

٩ – د/ عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط١، ١٩٩٢م.

١٠ – على شلق، النثر العربى فى نماذجه وتطوره لعصرى النهضة والحديث، دارالقلم، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.

١١ – أنيس المقدسى، الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، أغسطس ١٩٨٤م.

١٢ – ليون إدل، فن السيرة الأدبية، ترجمة صدقى خطاب، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

١٣ – عبدالسلام المسدى، النقد والحداثة، مع دليل بيلوغرافى، بيروت، دار الطليعة ١٩٨٣م.

١٤ – إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر بيروت، دار الشروق عمان، ط١، ١٩٩٦م.

١٥ – حسن بحراوى، بنية الشكل الروائى، المركز الثقافى العربى، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠م.
١٦ – تهانى عبدالفتاح شاكر، السيرة الذاتية فى الأدب العربى، فدوى طوقان، وجبرا إبراهيم جبرا، وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة المصرية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٢م.
١٧ – ياسين النصير، إشكالية المكان فى النص الأدبى، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ط١، ١٩٨٦م.
١٨ – سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٨٤م.
١٩ – محمد نجم، فن القصة، دار الثقافة بيروت، ط١، ١٩٦٦م.
٢٠ – أحمد إبراهيم الهوارى، نقد الرواية فى الأدب العربى الحديث فى مصر، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية الإنسانية، ١٩٩٣م.
٢١ – كامل المهندس، ومجدى وهبة، معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢ .
٢٢ – أحمد أمين، حياتى، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، ١٩٦١م
٢٣ – عبدالرحمن بدوى، الموت والعبقرية، وكالة المطبوعات، دار القلم، بيروت، ط١.
٢٤ – جبور عبدالنور، المعجم الأدبى، دار العلم للملايين، لبنان، ط٢، ١٩٨٤م
٢٥ – نبيل راغب، فنون الأدب العالمى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط١، ١٩٩٦م
٢٦ – حاتم الصّكر، كتابة الذات، دار الشروق، عمان، الأردن، ط١، ١٩٩٤م
٢٧ – على أدهم، على هامش الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٩م
٢٨ – ماهر حسن فهمى، السيرة تاريخ وفن، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ط١، ١٩٧٠م
٢٩ – على أدهم، لماذا يشقى الإنسان، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر، ط١
٣٠ – كارل بروكلمان، ما صنف العرب من أحوال أنفسهم، المنتقى من دراسات المستشرقين ترجمة صلاح الدين المنجد، ج١، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٥م
٣١ – محمد عبدالغنى حسن، التراجم والسير، القاهرة، دار المعارف، ط٣
٣٢ – شوقى ضيف، الترجمة الشخصية، القاهرة، دار المعارف، ط٤

٣٣ – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٤، مادة سير
٣٤ – الفيروزآبادى، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، مادة سير
٣٥ – أبى الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٦، مادة: سير ٦/ ٥٦
٣٦ – مجدى وهبة، كمال المهندس، معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م
٣٧ – محمد الجوادى، مذكرات الهواة والمحترفين، فن كتابة التجربة الذاتية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧م
٣٨ – محمد فكرى الجزار، العنوان وسيموطيقيا الاتصال الأدبى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م
٣٩ – د/ عبدالمحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر، دار المعارف، ط٥

دوريات:

١ – عبداللطيف الورارى، السيرة الذاتية والشعر، جريدة القدس العربى، يومية ٢٣/ ٥/ ٢٠١٥م
٢ – د/ كاظم حبيب، قراءة فى كتاب غصن مطعم فى شجرة غريبة (سيرة ذاتية) للدكتور صلاح نيازى، جريدة الحوار المفتوح، العدد ١٦٢٣ – ٢٢/ ٦/ ٢٠١٣م
٣ – يمنى العيد، السيرة الذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة، دراسة فى ثلاثية حنا مينا، مجلة فصول، مجلد (١٥)، عدد (٤)، ١٩٩٧م
٤ – وديع العبيدى، جدلية الاغتراب والوهم بين صلاح نيازى وابن رزيق، الحوار المتمدن، موبايل ١/ ١٠/ ٢٠٠٦م
٥ – عدنان حسين أحمد، غربة المثقف العراقى فى المنفى البريطانى فى فيلم وثائقى ثقافى، الحوار المتمدن . موبايل ٢٠١٣/١٢/١١م
٦ – جميل حمداوى، السيموطيقيا والعنونة، عالم الفكر، مج٢٥، ع٣، الكويت، ١٩٩٧م
٧ – عدنان حسين أحمد، السيرة الذاتية . الروائية . غصن مطعم بشجرة غريبة . مثالا، الحوار المتمدن . موبايل، بتاريخ ٢٠٠٨/٢/٢٦م

٨ – شكيب كاظم، الشاعر صلاح نيازى فى غربته الذاتية والموضوعية، السيرة الحياتية غصن مطعم فى شجرة غريبة، جريدة الزمان، جريدة عربية دولية مستقلة، ٣١ أغسطس ٢٠١٤م
٩ – سعدية مفرح، همزة وصل، غصن مطعم بشجرة غريبة، جريدة الرياض، عدد ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٤م
١٠ – سهير القلماوى، فن كتابة السير تاريخ هو أم أدب، مجلة العربى، عدد (١٧) نيسان ١٩٦٠م
١١ – ماهر حسن فهمى، فن السيرة، مجلة الأقلام، العدد الثالث، السنة الأولى، ١٩٦٤م
١٢ – أبوالمعاطى أبوالنجا، البئر الأولى، فصول من سيرة ذاتية، مجلة العربى، عدد (٣٥٢)، الكويت، مارس ١٩٨٨م
١٣ – سوسن الأبطح، أدب السيرة الذاتية، عربى أباً عن جد، حوليات القدس، العدد السادس، شتاء ربيع ٢٠٠٨م
١٤ – خليل شكرى هياس، السيرة الذاتية: تاريخ وثقافة، جامعة الموصل،كلية المعلمين،مجلة أبحاث،كلية المعلمين مج١،ع١
١٥ – لويس بوزويه، مظاهر السيرة الذاتية، حولية الجامعة اليسوعية، المجلد الأول، بيروت ١٩٨١م
١٦ – ويل وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكى نجيب محمود، الجزء الأول، المجلد الأول
١٧ – الهادى غابرى، خصائص البناء الفنى فى السيرة الذاتية، علامات فى النقد، ع٥١، مج١٣، ٢٠٠٤م

فهرس الموضوعات

المقدمة ٩٦٣
التوطئة ٩٦٦
التعريف بالكاتب ٩٦٦
السيرة لغة واصطلاحا ٩٧٠
مفهوم السيرة الذاتية ٩٧١
الفرق بين السيرة الذاتية والغيرية ٩٧١
المبحث الأول: ملامح السيرة الذاتية والأشكال القريبة منها ٩٧٦
التاريخ والسيرة الذاتية ٩٧٦
السيرة الذاتية والمذكرات ٩٧٩
اليوميات والسيرة الذاتية ٩٨٠
السيرة الذاتية والرواية ٩٨٠
ملامح السيرة الذاتية عامة ٩٨٣
دوافع كتابة السيرة الذاتية ٩٨٥
المبحث الثانى: نشأة السيرة الذاتية فى الأدبين العربى والغربى ٩٧٦
أولا: عند العرب ٩٨٧
ثانيا: عند الغرب ٩٩٢
المبحث الثالث : عناصر البناء الفنى للسيرة الذاتية ٩٩٥
العنوان ٩٩٥
الميثاق ٩٩٩
الأحداث ١٠٠٢
العيوب الفنية فى سيرة "نيازى" ١٠٠٤
الأشخاص ١٠٣٤

السرد ١٠٣٩
الزمن ١٠٤٢
الزمن الطبيعى ١٠٤٥
الزمن النفسى ١٠٤٦
المكان ١٠٤٧
الصراع ١٠٥١
الحوار ١٠٥٤
اللغة ١٠٥٧
الضمير ١٠٦٠
الخاتمة ١٠٦٤
المصادر والمراجع ١٠٦٧
فهرس الموضوعات ١٠٧١